ياسوناري كاواباتا

البحيرة

رواية يابانية



ترجمة
عبد الرزاق جعفر



* الطبعة العربية الاولى، ١٩٨٠

دار التنوير للطباعة والنشر . ص ب ٦٤٩٩ - ١١٣
بيروت - لبنان . الصنوبرة - أول نزلة اللّبان - بناية عساف .

* الناشر :

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر . ص ب ٥٨٠٣ - ١١٣
بيروت - لبنان . هاتف ٣٤٥٥٧١ تلكس : دِلتا ٢٠٦٣٩

* التنفيذ الفني : دار المثلث ش . م . م .

البحيرة

ياسوناري كاواباتا

رواية يابانية

ترجمة
عبد الرزاق جعفر





يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الفرنسي :

„ Le Lac «

عندما وصل « جيمبي مومومي » الى « كارويزاوا » كانت أواخر الصيف تختلط ببدايات الخريف .

بدأ بشراء بنطال من « الفلانيلا » إذ أن البنطال الذي كان يرتديه قد عفا عليه الزمن . ثم اشترى بعض الثياب الصوفية ارتداها فوراً فوق قميص جديد أيضاً . فكر برطوبة الضباب في أثناء الليل ، فاقتنى عطراً أزرق اللون شبيهاً بما يرتديه البحارة ، لقد كانت « كارويزاوا » مريحة فعلاً فيما يتعلق بالألبسة الجاهزة .

أخيراً وجد زوجاً من الأحذية نال اعجابه فاستغنى عن زوج الأحذية القديم المهترىء في المخزن ذاته . أما ألبسته القديمة فقد لفَّها في قطعة من القماش ، وشرع يتساءل عما ينبغي عليه أن يفعل بها .

ـ « أستطيع أن أتركها في (فيللا) غير مأهولة . ولن يكتشف أحد أمرها قبل حلول الصيف القادم » .

غاب في أحد الأزقة ، وتلمس بيده نافذة احدى (الفيللات) ، إلا أنه وجد أن أصحابها قد أحكموا إغلاقها ، إذ دقّوا عليها ألواحاً خشبية رقيقة بالمسامير . وبدا له أن الدخول اليها ، بعد تحطيم الألواح ، كان نوعاً من المجازفة . بل إنه رأى في ذلك جرماً لا يغتفر .

هل كان الناس سيتعقبونه فعلاً على أنه مجرم اذا قام بهذا العمل ؟ توجب عليه أن يقبل تماماً بأنه لا يعرف شيئاً في هذا الصدد . ولعل ضحيته تأبى رفع شكوى ضده ، من يدري ؟

قرر أن يخفي تلك اللفافة في برميل من براميل القمامة ، أمام مدخل المطبخ ، وتنفس الصعداء ، قد يعزى عدم إفراغ البرميل إلى نسيان المصطافين ،

أو إلى كسل الحارس ، وعندما دسّ الثياب لمح بعض الأوراق المجعدة الرطبة . ولم ينطبق غطاء البرميل لكن جيمبي لم يشعر بذلك .

مع ذلك ، استدار بعد أن سار مسافة ثلاثين خطوة ، خيل اليه أنه رأى غيمة من الفراشات ترقص فوق البرميل ، في الضباب ، وصمم أن يعود على عقبيه ، لولا أن ذلك الوهم تلاشى سريعاً كما يتلاشى غبار الاحراج المائل للزرقة ، كانت صفوف الاشجار تقوده نحو رواق مُتَموِّج مُتَوهِّج ، تنيره مصابيح (النيون) في بناء من أبنية الاستحمام .

عندما بلغ الحديقة الداخلية مسح شعره بيده ، لقد كان شعره مرتباً ، نعم ، لقد كانت براعته في حلاقته ، بموسى الحلاقة ، تدهش رفاقه دائماً .

رافقته مضيفة ، تدعى « التركية » نحو الحمامات « الحقيقية » . ولما أغلق الباب وراءهما نزعت قميصها ، لم تكن تحتفظ على صدرها إلا بعصابة رقيقة من القماش تستر نهديها .

رجع جيمبي الى الوراء قليلاً عندما شرعت تفك أزرار ممطره ، لكنه ما لبث أن استسلم لها ، وتركها تجثو أمامه ، وتعرّيه من ثيابه تماماً .

نزل في الحمام الذي يفوح طيباً . كانت مربعات الأعماق تطبع الماء بلون أخضر ، لم يكن العطر مثيراً ، في حد ذاته ، بيد أن جيمبي ، الذي لم يعرف في تسكعه الطويل إلا الفنادق التي لا تحمل نجمة « شينانو » ، أحس بأنه يغوص في أريج وردي ، مع ذلك ، وعندما ابتلّ جسمه بالماء تماماً غسلته الفتاة من قدميه إلى رأسه ، قرفصت ، ونظفته بيديها الرقيقتين ، بين أصابع أقدامه ، تنظيفاً دقيقاً ، كان معجباً برأسها ، كان شعر الفتاة ، الذي يزين رأسها ، والذي ردّته إلى الوراء ، كما كانت تفعل النساء قديماً عند خروجهن من الحمام ، يصل إلى كتفيها .

ـ « هل ترغب في شيء من الشامبو ؟ » .
ـ « وكيف ؟ هل الشعر أيضاً ؟ » .
ـ « بكل تأكيد . . . دعني أعمله » .

كان يكتفي ، دائماً ، بتندية شعره المقصوص ، وارتعش وهو يفكر برائحة شعره الذي لم يغسل منذ زمن طويل ، إلا أنه ما لبث أن خضع فانحنى واضعاً

مرفقيه على ركبتيه . جاء دور التدليك بالزيت فأفقده رصانته .

ـ « أخبريني . . . هل تعرفين أن لك صوتاً جميلاً جداً ؟ » .

ـ « أنا ؟ » .

ـ « نعم . . . إنك تسكتين لكن صوتك يبقى مسموعاً . ويريد المرء أن يدوم طويلاً . لكأن الصوت يمرّ بالأذن ليذهب إلى أعماق القلب . وإن أعتى المجرمين يتطامن اليه مستسلماً » .

ـ « لكن . . . مثل سائر البنات » .

ـ « لا . أبداً ، صوتك مشبع بالرقة والحنين . إنه صوت جميل جداً ، عذب ، وصافٍ . وهو ليس صوت مغنية مع ذلك ، أراهن أنك تحبين شخصاً ؟ » .

ـ « لا . . . بكل أسف ! » .

ـ « اسمعي ، كفّي عن دعك جمجمتي عندما تتحدثين ، إن هذا يمنعني من سماعك » .

جمدت أصابع الفتاة ، وقالت بارتباك :

ـ « إنك تثيرني ، ولا أعرف ماذا أقول ؟ » .

ـ « آه ! كأنه صوت ملاك ، كلمتان في الهاتف ، ولا يريد المرء أن ينساه أبداً » .

الحقيقة أنه كان على وشك أن ينفجر باكياً ، فنبرة هذا الصوت ، التي تشبه مداعبة اليد الدافئة ، الكريمة ، كانت تجعله ، واهن القوى يكاد أن يغمى عليه من فرط السعادة . هل هذا هو صوت المرأة الخالدة ؟ هل هو صوت الأم المفعم بالحنان ؟

سألها :

ـ « من أين جئت ؟ » .

فلم تردّ الفتاة على سؤاله .

ـ « من السماء ؟ من الجنة ؟ » .

ـ « آه إنني من نبيغاتا . . . » .

ـ « من المدينة ذاتها ؟ » .

ـ « لا . . . من ضيعة في المحافظة » .
كان صوتها متردداً خافتاً .
ـ « بلاد الثلج ! لهذا أنت جميلة جداً » .
ـ « لكنني لست كذلك » .
ـ « بلى . صوتك على وجه الخصوص . لم أسمع أبداً إلى مثل جماله . . . » .

انتهى دور الشامبو ، فشرعت تفرك شعره ، عدة مرات ، بالماء الحار مستعينة « بدلو صغير ، ثم لفّت رأسه بمنشفة واسعة وأخذت تدعكه . فرقت شعره فرقاً خفيفاً . ثم استعانت بمنشفة أخرى لفتها حول خاصرته . واقتيد جيمبي إلى حمام البخار بعد ذلك ، فتحت الفتاة الجانب الأمامي من علبة مكعبة وأجلسته فيها . كان ثمة فراغ في الغطاء يسمح بمرور العنق ، أغلقت النصف الثاني من هذا الغطاء ، فوجد جيمبي نفسه مطوقاً بما يشبه الغلّ الحديدي الذي كان يوضع في أعناق العبيد . فصاح متعجباً :

ـ « لكن هذه مقصلة ؟ » .

جحظت عيناه واستولى عليه الذعر ، ولما كان رأسه محصوراً فإنه كان يجاهد في النظر حوله في كل مكان ،

ـ « إن عدداً كبيراً من عملائنا يعتريهم مثل رد الفعل هذا » .

مع ذلك لم يكن يبدو عليها أنها تَأْبَهُ لفزعه ، كانت نظرة جيمبي تنتقل من الباب إلى النافذة ، عرضت عليه أن تغلق النافذة ، وهي تسير في اتجاهها .

فقال جيمبي :

ـ « لا لا فائدة من ذلك » .

لقد تركت النافذة مفتوحة لأن البخار كان يملأ جوّ الغرفة ، ولم يكن النور قادراً على التغلغل حتى أعماق الأشجار الكبيرة لذلك كان ينعكس على الأوراق . أشجار الدردار . وقد ظن جيمبي أنه كان يلمح ، في كتلتها السميكة ، نغمة صادرة عن (بيانو) ، لم يكن ما يسمعه لحناً ، أبداً . بل نغمات بسيطة ، وهماً سمعياً يصغي اليه الآن بكل تأكيد .

ـ « هل تطلّ هذه النافذة على حديقة ؟ »

ـ « نعم » .

كان جسم الفتاة ، الصافي ، شبه العاري ، ينفصل عن شاشة أوراق الأشجار التي يضيئها نور الليل الخافت ، ففكر جيمبي : « هل يتحتم عليّ أن أؤمن بهذه الصورة التي تمثل صورة عالم آخر ؟ » .

كانت الفتاة ، العارية القدمين ، تنتظر فوق البلاط الوردي الشاحب ، وكان الظل الصبياني لساقيها يبرز ، خلف ركبتيها ، حفرة عميقة في الظل .

وفكر جيمبي أيضاً: «لو بقيت وحيداً في هذا المكان لما تماسكت أبداً ! . . وقد يقضي هذا الفلّ عليّ في نهاية المطاف » .

كان قفاه على المقعد الصغير الساخن جداً . استند بظهره على عمق العلبة ، كان كل جانب داخلي يشعّ الحرارة ، وربما البخار أيضاً .

- « كم من الزمن يفترض أن أبقى ؟ » .
- « هذا يتعلق بالزبائن ، عشر دقائق . . . ربع ساعة عندما يكون المرء معتاداً » .

اذا صدقت الساعة الصغيرة ذات الرقاص الموضوعة على رفّ الثياب، بالقرب من المدخل ، فإن أربع دقائق أو خمساً قد مضت على الأغلب . ذهبت الفتاة وبلّلت ، بالماء البارد ، منشفة كانت تستخدم عمامة للرأس ، وعادت فوضعتها على جبهته
« آه ! بدأت أشعر بالإغماء ! » .

تمالك نفسه ، بصورة كافية ، فوجد أنه قد اتخذ مظهراً سخيفاً ، برأسه الذي يبرز فوق العلبة ، وهيئته الجادة التي تشبه هيئة راهب بوذي ، مرّ بيده على صدره وعلى بطنه . فشعر أنهما حارّان ودَبِقان . لعل سبب ذلك البخار أو تعرقه الخاص ، وأغلق عينيه .

بينما كان حمام البخار مستمراً وكانت الفتاة تشغل نفسها بإفراغ ماء الحمام المعطّر وتنظيف بالوعات المجاري ، كانت أصوات خرير المياه تصل إلى جيمبي . موجات تلطم الصخور . نورسان تخفق أجنحتهما خفقاناً مجنوناً . بحر صباه ينبثق فجأة في ذاكرته .

- « كم مضى من الوقت الآن ؟ » .

- « سبع دقائق تقريباً » .

ومن جديد ذهبت لتعصر المنشفة ، وعادت لتضعها على جبينه ، غاب في إحساس بالرطوبة مذهل ، وترك رأسه يترنح إلى الامام ، ثم صاح بعد أن استعاد وعيه فوراً :

- « آي ! » .

سألته الفتاة :

- « ماذا جرى ؟ » .

هل كانت تظن أنه ، بكل هذا البخار ، قد وقع فريسة للدوار فعلاً ؟ تناولت المنشفة ، ثم ثبتتها على جبينه .

- « لعلك تريد أن تخرج الآن ؟ » .

- « لا ، لا . . . لا بأس » .

وعلى حين غرة ، رأى نفسه ماضياً في ملاحقة هذه الفتاة ذات الصوت البديع . شارع من شوارع طوكيو بحافلاته ، وبصفوف الأشجار الممتدة على أرصفته ، كان جيمبي ماضياً في السباحة ، تقيده أغلاله ، عاجزاً عن القيام بأقل حركة . لا يتمكن من إبداء استيائه .

رجعت الفتاة القهقرى . كان يبدو لها أن ملامح زبونها تنبىء ببعض القلق ، حاول أن يختبرها :

- « حين لا ترين مني إلا رأسي ، كما هي حالي الآن ، كم تقدرين عمري ؟ » .

لم تعرف كيف تجيبه فقالت له :

- « إنني لا أتمكن أبداً من تقدير عمر رجل » .

نطقت بهذه العبارة دون أن تنظر اليه ، وبذلك فقد فرصة إخبارها أن عمره أربعة وثلاثون عاماً ، وهي ؟ إنها لا تكاد تبلغ العشرين بدون ريب ، فكتفاها وبطنها ، وساقاها كانت كلها تنبىء ، من غير أي تردد محتمل ، أنها عذراء ، وشفتاها الورديتان البديعتان لم يمسها أحمر الشفاه إلا قليلاً .

تأوّه ، فرفعت ذلك الجزء من الغطاء الذي كان يحبس حنجرته ، كانت

منشفة ملفوفة حول عنقه ، تناولتها الفتاة من طرفها ، وحلّتها بكل حذر وحيطة ، ثم جففت العرق الذي يغطيه من قدميه إلى رأسه ، لفّ ، حول خصره ، منشفة واسعة ، بينما غطت الفتاة كرسياً طويلاً ، موضوعاً بالقرب من الجدار ، بقطعة من القماش الأبيض ، وساعدته على أن يضطجع على بطنه ، ثم شرعت بتدليكه بدءاً من الكتفين .

اكتشف جيمبي أن التدليك ليس عمليات اللمس الناعم والفرك الخبير فحسب بل يحتوي ضربات خفيفة قاسية تقوم بها راحة يد مفتوحة . كانت يدٌ نسوية ، وواهنة ومع ذلك فإنها تضرب ظهره بحيوية ونشاط مذهلين ، مما جعل تنفسه يتسارع بشكل واضح ، رأى في ذلك ابنه الذي كان يلكم جبينه بقوة قبضته الصغيرة . كان يخفي وجهه من تلك الضربات اللذيذة المتلاحقة ، في أي وقت كان يجري فيه هذا المشهد الخيالي ؟ لقد أودع الطفل في القبر وأصبحت يداه تتصارعان ضد قشرة الأرض التي سجنته . كانت الجدران تضغط عليه في قلب الظلام ، شعر جيمبي بأنه غارق في العرق البارد .

- « هل ستضعين لي شيئاً من الطلق[1] ؟ » .

- « بكل تأكيد ، ألا تشعر بأنك على ما يرام ؟ » .

فردّ عليها بسرعة :

- « أجل . . . أجل . . . إنني أسبح من جديد . هذا كل شيء . . . ولو وجد رجل واحد لا يشعر بأنه على ما يرام عندما يسمع صوتك ، فإنني واثق بأنه سوف يختار هذه اللحظة ليرتكب جريمته » .

دهشت الفتاة لقوله فتوقفت عن التدليك .

- « أنا مثلاً ، عندما أصغي اليك أشعر كأن كل شيء يغيب عن الوجود ما عدا صوتك . إن هذا خطر جداً بكل تأكيد إذ أن كل شيء يتلاشى على هذا النحو . أما الصوت . . . فلا يمكن أن نلاحقه ، ولا نستطيع أن نقبض عليه . يتعذر الامساك به مثل الزمن ، مثل الحياة ذاتها ، آه ! ومع ذلك قد لا يكون الأمر على هذا الشكل أبداً ، أنت ، مثلاً ، تستطيعين اختيار اللحظة المناسبة التي

---

(١) ذرور أو مسحوق يرش على الوجه والجسم .

تجعلينه فيها مسموعاً ، هذا الصوت المعبود ، وبالعكس ، اذا قررت أن تصمتي ، كما هي الحال الآن ، فلن يعرف أحد كيف يرغمك على الكلام . قد نستطيع انتزاع صيحة دهشة منك ، أو صرخة فزع ، أو حتى الدموع ، لكن صوتك الحقيقي . . . أنت وحدك التي تقررين إسماعه للآخرين أو منعهم منه » .

ظلت الفتاة صامتة حتى هذه اللحظة ، دلكت جيمبي من خصره حتى فخذيه ، ثم اندفعت نحو بطتي ساقيه ، وهبطت حتى أصابع القدمين .

ـ « الآن . . . إلى الجانب الآخر » .
كان صوتها الخافت لا يكاد يسمع .

ـ « عفواً ؟ » .
ـ « هل تتكرم فتستدير الآن ؟ » .
ـ « أستدير ؟ هل تريدين أن أنام على ظهري ؟ هذا ما تريدينه ؟ » .

استدار وهو يضغط المنشفة على جسمه ، كان همس الفتاة الخافت ينتشر على شكل اهتزازات ، وكان يرافق حركات جسم جيمبي كأنه . . . عطر الزهور ليستقر في تجويف أذنيه ، كانت الفتاة مستندة على سرير التدليك الضيق وماضية في تدليك ذراعه ، وكان نهداها يتدليان فوق وجه جيمبي . وبالرغم من أن عصابة القماش الرقيقة ، التي تخفيهما ، لا تضغط عليهما تماماً ، بسبب تراخيها ، فإن حافتها كانت تحفر أخدوداً خفيفاً في لحم الفتاة ، لكن النهدين لا يشيران إلى نضج كامل لديها ، كانت جبهة الفتاة العريضة نوعاً ما تحيط على وجه طويل مألوف ، لعل طريقتها في تصفيف شعرها ، وتسريحه إلى الوراء ، يجعله طويلاً على هذا النحو ، ويبرز بريق عينيها ، أما الخط الواصل بين العنق والكتف ، وصورة المفاصل ، فيحافظان على الصفاء الذي يسلبه الشباب عادة ، إن إشعاع ذلك الجسم القريب جداً أرغم جيمبي على إغلاق عينيه ، فانبثقت تحت شاشة جفونه صورة علبة مليئة بالمسامير الدقيقة ، مثل تلك التي يستخدمها النجارون ، كانت المسامير تتلألأ ، ففتح جيمبي عينيه ثانية وثبت نظره في السقف . كان السقف شديد البياض .

ـ « يبدو عليّ أنني أكبر سناً مما أنا عليه في الواقع ، أليس كذلك ؟ والسبب في ذلك أن الحياة لم تكن سهلة معي أبداً » .

كان يتحدث بصوت خفيض . لم يكن قد ذكر عمره من قبل .
ـ « عمري أربعة وثلاثون عاماً » .

ـ « نعم ؟ ولكن . . . لا يبدو عليك ذلك » .

كان صوتها غير واضح التعبير ، إنها الآن على مقعد طويل قريب تدلك ذراعه الأخرى ، بجوار الجدار الذي استند اليه السرير .

ـ « ألا ترين أن أصابع قدمي شبيهة بأصابع القرود . إنها طويلة ، ملتوية ، لكنني أمشي كثيراً ، إنه لمن الصعب جداً عليّ أن أرى قدميّ ، إنهما قبيحان جداً ، مع ذلك قمت أنت بتدليكهما بيديك الجميلتين هاتين . ألم تصابي بالتقزز عندما نزعت عنهما الجوارب ؟ » .

لم تنبس ببنت شفة .

ـ « وأنا أيضاً ، كما تعلمين ، جئت من شواطىء بحر اليابان . من زاوية صغيرة صخرية على الساحل ، الحجارة سود هناك ، كنت أمشي عاري القدمين متسلقاً لها بأصابعي الطويلة . . . » .

وغاب في شرح طويل وفي أكاذيب صغيرة ، كم مرة شوّه ، في صباه الطويل ، الحقائق بكل الصور الممكنة ، على هذا النحو ، متذرعاً بقدميه التعيسين ! لكن الجلد المسْوَدّ في ظاهر جسده ، وتجعدات الأصابع ، والتواءها الغريب . . . كل ذلك لم يخترعه ، مع الأسف الشديد !

كان نائماً على ظهره . ولم يكن يرى أصابع قدميه . رفع يديه حتى وجهه ، وتفحصهما ، كانت الفتاة منهمكة بالعضلات التي تربط الذراع بالجذع ، ووصلت ، في هذه اللحظة ، الى عضلات الصدر ، وهنا حكم جيمبي بأن يديه ليس لهما المظهر المزري الذي يتجلى في قدميه ،

سألته الفتاة بصوتها الطبيعي :
ـ « في أي جهة من الساحل ؟ » .
فتمتم :
ـ « أين ؟ ليست بي رغبة في الحديث عن هذا المكان . أنا لست مثلك . أنا . . . ليس عندي مقرّ ثابت . . . » .

لم يكن يبدو على الفتاة أنها متشبثة بمعرفة مكان ولادته ، كما أنه لم يكن يبدو عليها أنها متعلقة بشفتيه . ماذا حدث للإنارة ؟ لم يكن هناك أي أثر للظل على جسمها ، انحنى نصفها الأعلى عندما كانت تدلك صدر جيمبي . عاد فأغلق عينيه ثانية ، أين ينبغي أن يضع يديه ؟ لو مدّ ذراعيه بجوار جذعه لجازف بلمس ورك الفتاة . تخيل الصفعة التي سيتلقاها ، الصفعة المدوية ، التي لا يمكن أن تصيبه إلا بأطراف الأصابع ، وفي هذه اللحظة أحس بصفعة حقيقية . استولى عليه الذعر ، فأراد أن يفتح عينيه لكن جفونه ، التي أصابها السوط ، ظلت مغلقة ، سيطرت عليه رغبة ملحة في البكاء لكن دموعه أَبَتْ أن تنجده . كانت عيناه تؤلمانه كأنما غرست فيهما أُبَرٌ محرقة ، لا ، لم تكن يد الفتاة هي التي فعلت ذلك،بل كانت حقيبةنسوية من الجلد الأزرق ، هي التي لطمته في منتصف وجهه . وفي اللحظة ذاتها ، ودون أن يعرف كيف حدث ذلك ، ما إن تلاشى أثر الصدمة حتى رأى تلك الحقيبة ملقاة على الأرض ، عند قدميه تماماً ، هل ضربت تلك الحقيبة جيمبي فعلاً أم أنها ألقيت على وجهه ؟ إنه لا يجرؤ على قول ذلك ، لم يكن واثقاً إلا من شيء واحد هو الصدمة التي تلقاها على وجهه اذ أنه ، في تلك اللحظة ، استعاد وعيه ، فأخذ يصيح :

ـ « يا آنسة . . . يا آنسة . . . » .

كان يريد احتجاز تلك المرأة الشابة ، في تلك اللحظة ، ليقول لها إنها فقدت محفظتها ، لكن شبحها اختفى في زاوية الصيدلية ، ولم تبق الا تلك المحفظة في وسط الشارع آنذاك ، محفظة من الجلد الأزرق ، دليلاً لا ينكر على إدانة جيمبي ، كانت تلك المحفظة نصف مفتوحة ، تبرز منها رزمة من الأوراق النقدية ، من فئة ألف (ين) ، ومع ذلك ، لم يكن المال ، لأول وهلة ، هو الذي يسترعي انتباه جيمبي ، بل المحفظة ذاتها لأنها كانت شاهداً على خطيئته ، كأن تلك المرأة ، حين قذفتها نحوه وهربت منه ، كانت تدمغ سلوكه بطابع الاجرام . دفعه الذعر إلى التقاطها بسرعة ، حينئذ فقط لمح رزمة النقود ذات الألف (ين) ، فاعترته الدهشة لذلك .

وقد ظن جيمبي ، إثر ذلك ، أن الصيدلية نفسها لم تكن إلا وهماً صادراً عن الحواس . لماذا وجدت هناك متواضعة عتيقة وحيدة ، في قلب هذا الحي السكني

الغني ؟ مع ذلك ، لقد رأى اللافتة بوضوح ، وعلاجاً ضد ديدان الأمعاء ، أمام المدخل تماماً . وشاءت الصدفة السخيفة أيضاً أن يوجد أمامها دكانان لبيع الفواكه ، هناك حيث ترسم سكة الترام منحنى يحيط بالحي ، وفي داخل كل واحد من هذين الدكانين تصطف سلال صغيرة مليئة بالكرز والتوت الافرنجي . لماذا كتب عليه أن يلاحظ هذين الدكانين تماماً عندما كان يقتفي أثر تلك المرأة الشابة ناسياً كل ما بقي من العالم ؟ هل كان يسعى في أن يحفر ، في ذاكرته ، بعض نقاط الارتكاز ؟ أو المكان الصحيح الذي يدور فيه لكي يجد منزل تلك المرأة الشابة ؟ ومع ذلك ، كان وجود محلي بيع الفاكهة أمراً لا يمكن نكرانه ، ورأى ، مرة أخرى ، حبات التوت المتشابهة المصفوفة ، بكل عناية ، في سلالها ، قد لا يكون هنالك سوى دكان واحد فعلاً ، في إحدى زوايا الشارع ، وربما تخيل أنه رأى واحداً في كل زاوية ؟ أليس معروفاً أن الأشياء تزدوج في مثل هذه الظروف ؟ وفي أكثر من مرة ، كافح جيمبي بضراوة ضد إغراء الذهاب للتحقق من وجود الصيدلية ومحلي بيع الفاكهة ، وواقع الأمر أن جيمبي لم يكن يتصور الحي نفسه إلا تصوراً غامضاً جداً . وأكثر من ذلك ، إنه كان يضع الحي كله تقريباً ، فوق صورة ذهنية لخارطة طوكيو . وإن ما كان يهمه آنذاك هو الطريق الذي سلكته تلك المرأة الشابة ووجهتها .

وتمتم بعفوية :

ـ « ولكن . . بكل تأكيد ، ما كان عليها أبداً أن ترميها ! » .

فتح عينيه فجأة ، كانت الفتاة ، في تلك اللحظة ، تدلك خصره ، عاد فأغلقهما مرة جديد خشية من أن يجذب انتباهها . ألم تكتشف ، عبر نظرات جيمبي ، نظرة شبيهة بنظرة ما لا نعرف من أنواع العصافير الشيطانية؟حسناً . لقد توهم وجود حقيبة نسوية ، لكن ليس أبداً إلى درجة قذفها عليه ، أو إلى درجة نكران وجود تلك المرأة ذاتها . شعر بأن معدته تتقلص وتتمدد بحركات تشنجية . فقال محاولاً أن يخلق جواً من المرح :

ـ « إنك تدغدينني . . » .

أصبحت يداها أقل إلحاحاً . وهنا بدأ يشعر بمتعة الدغدغة ! فانتابه الضحك ولم يتمكن من ضبط نفسه .

سواء كانت تلك المرأة قد قذفت المحفظة في وجهه أو أنها أرادت ضربه بها فإن جيمبي كان يقدِّر إلى الآن أنها كانت تظن أن هناك من كان يتبعها من أجل محتواها ، وفي ذروة فزعها ما كان عليها إلا أن ترميها وتلوذ بالفرار ، ولعلها ما كانت لتنوي رميها لو أنها فكرت ملياً . لقد استعانت بها لتبعد عنها جيمبي اذ أنها أول غرض كان في متناول يدها ، ففرّت الحقيبة من يديها بهذه الحركة ، هذا كل ما في الأمر . وفي هذه الفرضية أو تلك ، كانت المرأة الشابة وجيمبي قريبين من بعضهما بدون ريب ، لأن المحفظة ، التي استعانت بها ، تمكنت من لطمه في وجهه ، فهل انقص المسافة التي كانت تفصلهما عن بعضهما عندما بلغ هذا الحي السكني الخالي ؟ وهل كان هذا التقارب هو الذي دفع المرأة الشابة إلى الفرار بعد ضربه بحقيبتها ؟

أما هو، فانه لم يكن يفكر بالمال قط. لقد كان يجهل وجوده: بل انه لم يكن ليخطر في باله أبداً أنها كانت تحمل مثل هذا المبلغ. لذا لم يلتقط سوى ذلك الدليل الصارخ الذي يكشف فعله السيء ، لكنه ما لبث أن وجد أمامه أن هذه المحفظة كانت تحتوي مائتي ألف (ين) . وبالإضافة إلى تلك الرزم الجديدة ، التي لم تُطْوَ ، كان فيها أيضاً دفتر إيداع . كان ذلك واضحاً ، كانت المرأة خارجة من مصرفها ، واعتقدت أن هناك من كان يتبعها منذ أن كانت واقفة عند الكوّة . لم تكن المحفظة تضم إلا ما يقارب ألفاً وست مئة (ين) بالإضافة إلى الرزم ، كما أن قراءة الدفتر الصغير كانت تكشف أن سحب مائتي ألف (ين) لم يُبْقِ في الحساب سوى سبعة وعشرين ألفاً ، وبعبارة أخرى إن السحب أفرغ الرصيد .

واذا صدق الدفتر الصغير فإن اسم صاحبة الرصيد هو « ميياكو ميزوكي » . فإن لم يكن المال هو الذي جرّ جيمبي ، بل هو نوع من الإغواء الشيطاني أبدته تلك المرأة الشابة ، فما عليه إلا أن يعيد إليها المال ودفتر الحساب جميعاً ، بيد أن الأمر لم يكن سهلاً . الحقيقة أن جيمبي تبع المرأة الشابة ، وأن المال الذي قد يكفل له الآن حياة وإرادة خاصتين ، أصبح يطارده هو ، جيمبي الذي لم يسرق من قبل أبداً ، لكن . . . هل القضية قضية سرقة ، أم أن المال ذاته هو الذي كان يأبى الانفصال عن جيمبي لكي يهدده دائماً ؟ الله يعلم أنه ، في اللحظة التي كان يلتقط فيها الحقيبة ، كان مشغول البال جداً حتى يفكر في القيام بسرقة ! لكن ما إن أصبحت تلك الحقيبة بين يديه حتى أصبحت دليلاً فاضحاً على فعلته السيئة .

أخفاها تحت ذراعه وحث الخطا نحو خط الترام . وشاء سوء الحظ أن الفصل لم يكن فصل المعاطف فدخل في أحد الدكاكين . ولم يقف فيه إلا وقتاً قصيراً كافياً لشراء قطعة من القماش لكي يلفّ فيها الحقيبة .

كان يعيش وحيداً في غرفة مستأجرة في الطابق الأول . عندما عاد إليها استخدم الفرن الطيني فيها لكي يحرق دفتر ميياكو ميزوكي فوراً ، ومنديلها وأشياءها التافهة الأخرى. وبعد أن فعل ذلك جلس قليلاً وشعر بأن من المستحيل معرفة العنوان الذي كان مسجلاً في ذلك الدفتر الصغير إذ أنه نسي أن يكتبه . لذلك كانت كل فرصة لإعادة المال إلى صاحبته قد هجرته . كان دفتر الحساب الصغير والمنديل والمشط كلها تطلق ، في احتراقها ، رائحة حادة ، خشي جيمبي أن تزداد تلك الرائحة الكريهة ، فقطع الحقيبة على شكل أشرطة رفيعة دسّها في النار واحداً إثَر واحد، في الأيام التالية، أما ما كان مصنوعاً من المعدن ، أي ما كان غير قابل للاحتراق ، كأنبوب أحمر الشفاه ، وقفل الحقيبة ، وعلبة البودرة ، فقد تخلص منها ليلاً بإلقائها في إحدى الحفر . ففي هذه الحفر يجد المرء دائماً هذا النوع من الأغراض ، وليس يهمّ أبداً أن يعثر عليها أحد . مع ذلك ، فقد أخذ جيمبي يرتعد عندما قذف بقايا الأنبوب .

ظل مستمراً في تتبع أقوال الصحف والاذاعة ، لكنه لم يجد ، ولو مرة واحدة ، ذكراً لسرقة حقيبة يد تحتوي دفتر حساب مع مائتي ألف (ين) ، « إنهالم تنبىء الشرطة طبعاً . ربما كان عندها شيء يمنعها من فعل ذلك » .

بينما كان يدمدم هذه العبارة كانت أعماق قلبه تحمرّ كأنها شعلة مضطربة ، ألم يكن ذلك لأنه لم يعرف ما الذي كان يثيره في تلك المرأة ، ولأنه تبعها لهذا السبب ؟ ألم يكونا كلاهما قد تلبستهما الشياطين ذاتها ؟ كان يعرف بتجربته أن هذا النوع من الوقائع ممكن . وعندما خطرت في باله فكرة أنه هو ومياكو متماثلان ..ى نوعاً من الانفعال ، وأصبح أسفه مرّ الطعم عندما تذكر أنه لم يحتفظ بعنوان ..رأة الشابة .

من المؤكد أنها ، عندما رأت نفسها متبوعة من جيمبي، انتابها الفزع الشديد ، ولكن ألم تشعر ، في الوقت ذاته ، دون أن تدري ، بلذة معذبة ؟ هل يمكن لكائن حي أن يشعر بلذة لا يقاسمه فيها أحد ؟ هو ، جيمبي ، ألم يتعرف ،

بين كل النساء الجميلات اللواتي يخطرن في المدينة ، على ميياكو ، مثل ذاك الذي يتناول العقاقير والذي يستطيع أن يميز العقاقير الأخرى ؟

لقد كان الأمر على هذا المنوال مع « هيزاكو تاماكي » على كل حال . المرأة الأولى التي تبعها جيمبي ، لم تكن امرأة ، بل فتاة صغيرة جداً ، بل إنها أصغر ، بدون ريب ، من هذه التي تعمل في الحمام والتي تملك صوتاً محبباً . لقد كانت هيزاكو تلك تلميذة جيمبي في المدرسة الثانوية آنذاك . وعندما انتشرت شائعة علاقاتها فصل من وظيفته .

كان جيمبي قد جرى خلف الفتاة حتى بلغ سور بيتها الخارجي عندما جمدته روعة البوابة في مكانه ، كانت البوابة المصنوعة من الحديد المزخرف والمتوجة بالنقوش العربية تظل مفتوحة دائماً . حين اجتازتها هيزاكو التفتت اليه ونادته من بعيد :

- « يا سيدي . . ! » .

كان وجه الفتاة الشاحب قد تورّد فشعر جيمبي أن وجنتيه قد اشتعلتا بالمقابل ، فقال لها بصوت متلعثم :
- « هه . . . أنت تسكنين هنا . . . يا تاماكي ؟ » .
- « يا سيدي . . . هل ترغب في شيء ؟ هل كنت قادماً إلى بيتي ؟ أليس كذلك ؟ » .

ليس من المألوف طبعاً أن يقوم مدرس بزيارة تلاميذه بعد ملاحقتهم في الشوارع دون أن يتبادل معهم الحديث ، لكن جيمبي تشبث بهذه الذريعة .

- « نعم . هل تعرفين أنك محظوظة ؟ إنها لمعجزة حقاً أن تسكني في بيت من هذا النوع . . . لم تمسّه الحرب ! » .

كان يتحدث متأملاً البوابة ومبدياً إعجابه بها .
- « لقد احترق بيتنا الحقيقي ، واشترينا هذا . . . بعد الحرب » .

- « هه . . . ! بعد الحرب ؟ ما هو عمل أبيك إذن ؟ » .
- « هل كنت ترغب في شيء يا سيدي ؟ » .

كانت عينان حانقتان تحدقان به عبر الزخرفة العربية .

- « نعم .. لأبحث معه موضوع قدميّ ، إنني أعـاني من فطور بـين أصابعهما . وأبوك يعرف علاجاً ناجعاً لهذا الداء .
... أليس كذلك ؟ » .

وفي الوقت الذي كان يتحدث فيه عن مرضه كان يتساءل ، في أعماق نفسه ، أين عثر على فكرة هذا الداء ؟ أمام هذه البوابة ! وأمام هذه الروعة ! كان تعبيره شديد البؤس يستحق الرثاء ، لكن هيزاكو كانت تلح بوجهها القاسي :

- « الفطور ؟ » .
- « حسناً ... نعم ... العلاج ... وأنت تحدثت عنه أمـام احدى رفيقاتك ... تحدثت عن علاج ناجع ضد فطور أصابع القدمين . أليس كذلك ؟ » .

بدا عليها أنها تحاول التذكر .

- « لقد بلغت مرحلة لا أستطيع المشي فيها . هل يزعجك أن تسألي والدك عن اسم الدواء ؟ سوف أنتظرك هنا .. » .

كان المسكن من الطراز الغربي ، وعندما تأكد جيمبي من اختفاء الفتاة ، في داخله ، وضع ساقيه في عنقه ، ولاذ بالفرار . كان يخيل اليه أن قدميه كانا يجريان خلفه ... قدماه القبيحان ...

ولقد زعم لنفسه أن هيزاكو لن تجازف فتحكي أنه قد تبعها . لا أمام والديها ولا أمام رفيقاتها في الصف ، وعندما حلّ المساء شعر بأو جاع عنيفة في رأسه ، مع ذلك ، وبتشنج عصبي في الجفون منعه من أن يجد سبيلاً للنوم . حتى عندما نام كان نومه سهادا ، وكلما استيقظ لمس جبهته الندية . كان يخيل اليه أن التعب المخيف المتراكم في قذاله يتسلق حتى يصل إلى أعلى جمجمته ، فتتغطى جبهته بالعرق من جديد ، وتثور الآلام المروعة .

بدأ وجع الرأس هذا يقلقه ، منذ اللحظة التي هرب فيها من مسكن هيزاكو ، ومنذ أن ذهب بعد ذلك ليطوف في حي من أحياء بيع اللذة ، غير بعيد عن ذلك المسكن ، لم تكن ساقاه قادرتين على حمله ، فجلس القرفصاء على أحد الأرصفة ، وضغط جبهته بيديه ، كان وجع الرأس مصحوباً بالدّوار ، كان

جيمبي ، في كل لحظة ، يظن أنه يسمع من المدينة ، قرع جرس قوي ، يعلن ، بكل فخامة ، عن البطاقة الرابحة في سحب اليانصيب ، أو أنه صوت سيارات الإطفاء منطلقة نحو أهدافها .

ـ « هل هناك شيء ليس على ما يرام ؟ » .

كانت ركبة نسوية تلمس كتفه . التفت جيمبي ورفع عينيه ، يبدو أنها إحدى بنات اللذة التي كانت تلازم الأحياء الساخنة منذ نهاية الحرب ، ولكي لا يعرقل مرور السابلة فكر ، مع ذلك ، في أثناء فزعه ، بالالتصاق بواجهة أحد مخازن الزهور ، وأسند جبهته على زجاجها .

خاطب تلك الفتاة قائلاً :

ـ « كنت تسيرين خلفي . أليس كذلك ؟ » .
ـ « لا . . . ليس تماماً » .
ـ « ولست أنا من يتبعك أيضاً كما أتصور ! » .
ـ « ياه . . . ! »

هل كانت تنكر ؟ هل كانت تعترف ؟ كان الجواب مبهماً . لو كان الموضوع يتعلق بالموافقة لكان على الفتاة أن تتابع كلامها . ولما لم تفعل ذلك استأنف هو الكلام وقد نفذ صبره :

ـ « إن لم أكن أنا أتبعك . . . فمعنى ذلك أنك أنت التي كنت تتبعينني . أليس كذلك ؟

ـ « وبعد ؟ » .

كان شبح الفتاة ينعكس في زجاج الواجهة وكأنه يكاد يمتزج بالزهور .
ـ « ماذا تنتظر ؟ أسرع إذن ، انهض فالناس ينظرون الينا ، هل تتألم في جزء من أجزاء جسمك ؟ » .
ـ « الفطور . فطور في الأقدام » .

كانت الدهشة الأولى عندما سمع نفسه يكرر هذه الحماقات ومع ذلك استمر يقول :
ـ « إنها تؤلمني ألماً شديداً إلى درجة لا أقوى معها على السير» .

- « ياه . . . ! إنه لأمر رهيب . لكنني أعرف مكاناً ممتازاً قريباً جداً من هذا المكان . تعال معي لنرتاح فيه ، اذ أن من الأفضل أن تنزع حذاءك وجواربك » .

- « هل تظنين أن بي رغبة في عرض قدميّ عليك ؟ » .

- - « وأنت ، هل تعتقد أن ما أريده هو رؤ ية قدميك ؟ »

- « سوف تصابين بالعدوى . هل تعرفين ؟ » .

- « لكن . . . لا . . . لا تشغل بالك بذلك ! » .

وضعت يدها تحت كتفه وتظاهرت بأنها تحاول رفعه .

- « هيا . ابذل جهداً خفيفاً . هيا بنا ! » .

كانت يده اليسرى على جبهته دائماً وكان يتأمل الفتاة بين الأزهار ، عندما رسمت ملامح امرأة أخرى خلفها ، هل هي بائعة الزهور ؟ استندت يد جيمبي اليمنى على الواجهة ، كأنما كانت تريد التقاط حفنة من زهور « الدهلية » البيضاء ، ووقف على قدميه ، كانت صاحبة المخزن تمعن النظر فيه وهي مقطبة حاجبيها الرفيعين ، خاف أن يجرح نفسه ، إذا كسر الزجاج ودخلت يده فيه ، فاستدار على عقبيه ، وواجه الفتاة منتصباً .

- « ولا تحاولي الفرار . . . هيه ؟ » .

- وقرصته في أعلى صدره بشدة :

- « آ ي . . . ! » .

وأحس بأنه يعود إلى الحياة من جديد ، لم يتمكن من أن يفهم كيف دفعه فراره من بوابة بيت هيزاكو إلى هذا الحي الخاص ، ولكن ، في اللحظة نفسها التي كانت تلك الفتاة تقرصه شعر بأن الضباب ، الذي كان يغلف ذهنه ، قد بدأ يتلاشى . . . مثل رطوبة رائعة . . . كان على ضفة بحيرة ، ونسيم عليل قادم من الجبال العالية كان يداعبه ، كان هذا النسيم العليل ، في العادة ، يهبّ في فصل البراعم ، ومع ذلك كانت البحيرة مغطاة بالجليد . هل كان ذلك لأن ذراع جيمبي كان على وشك اختراق الزجاج الذي كان واسعاً كالبحيرة ؟ نعم . . . البحيرة التي كانت مجاورة للقرية التي ولدت فيها أمه. وكانت هناك مدينة أخرى على ضفافها أيضاً ، بيد أن أم جيمبي انحدرت من قرية ، كانت البحيرة غارقة في الضباب ، وكانت اللانهاية تبدأ مع الجليد ، فيما وراء الشاطىء مباشرة . كانت

« ياغوي » بنت خال جيمبي القريبة . ولقد دعاها جيمبي مرة ، بل رافقها في نزهة على سطح تلك البحيرة الجليدية . كان المراهق يكره ياغوي ويتمنى لها كل شر ممكن . وكان يغذي في قلبه أملاً مخجلاً في أن يتصدع الجليد تحت قدمي بنت خاله ، وأن تبتلعها مياه البحيرة ! كانت ياغوي تكبر جيمبي بعامين بيد أنه كان أكثر خبثاً منها ، لم يكن عمره قد بلغ العاشرة عندما مات أبوه موتاً مأسوياً . تملكه خوف شديد من أن تهجره أمه وتعود إلى ذويها . فتسلح بالحيلة أكثر من ياغوي ، لأن ياغوي ربيت في قطن مندوف كأنها تحت أشعة شمس الربيع الحارة ، ولعل هذا المسّ غير الواعي الذي يدور حول خوفه من فقدان أمه ، هو الذي جعله يكتشف في بنت خاله حبه الأول . كانت سعادة الشاب جيمبي في أن يتتبع الطريق الذي يحاذي الشاطىء ، وفي أن يختلط خيالهما المنعكس على ماء البحيرة . كان يسير وينظر في الماء ويفكر أن هاتين الصورتين المنعكستين تنطلقان نحو نهاية العالم ، وتتعانقان إلى الأبد ، لكن تلك السعادة كانت قصيرة . فتلك الفتاة التي تكبر جيمبي بعامين كانت آنذاك تلامس عامها الرابع عشر أو الخامس عشر . فاكتشفت أنها أصبحت امرأة . وبدا عليها عدم الاكتراث بجيمبي . وفضلاً عن ذلك ، شرعت أسرة الأم كلها ، بعد موت الأب ، تعلن عن بغضها لعائلة الفقيد ، حتى ياغوي نفسها كانت تتحاشى جيمبي وتبدي نحوه احتقاراً سافراً . في تلك اللحظة ذاتها بدأ يتمنى لو تتصدع البحيرة وتبتلع الفتاة الشابة . ويقال إنها ، بعد ذلك ، تزوجت من أحد ضباط البحرية ، لكنها ما لبثت أن أصبحت أرملة .

وعلى هذا النحو أيضاً يحدث أن تذكر واجهة مخزن بيع الزهور جيمبي ، على هذا النحو ، بسطح البحيرة الجليدي .

قال مخاطباً بنت الهوى وهو يفرك الجزء المتوجع :

ـ « هل لديك الجرأة في قرصي على هذا الشكل ؟ لقد تركت في جسدي أثراً أزرق ! » .

ـ « اطلب من زوجتك ، أن تلقي عليه نظرة عاجلة عندما تعود الى البيت . . . » .

ـ « ليست لي زوجة . » .

ـ « أوه ؟ » .

فقال من غير تأثر :

ـ « لا . . . هذه هي الحقيقة ، مدرس وأعزب » .

فأجابت الفتاة :

ـ « وأنا تلميذة وعزباء ! » .

ولما كان يعرف أنها تتحدث دون أن تعني ما تقول ، فإنه لم يشرفها بنظرة ، لكن كلمة « تلميذة » أهاجت أوجاع جمجمته . نظرت الفتاة بطرف عينها إلى قدمي جيمبي :

ـ « أنت تتألم من هذه الفطور ؟ لقد قلت لك آنفاً أن من الخير لك ألا تمشي ! » .

لقد جرى خلف هيزاكو تاماكي حتى بيتها . ماذا كان يمكن أن تفكر لو رأته الآن ، لو تتبعت هي ذاتها خطاه ، وقد أسرته مثل هذه المخلوقة ؟ التفت جيمبي نحو المارة ، فجأة هل عادت نحو الحاجز المشبك بعد اختفائها في البيت ؟ كان يجهل ذلك . لكنه ظل قانعاً في ذهنه ، بأن الفتاة ، في هذه اللحظة ذاتها ، فقط ، كانت متعلقة بخطواته .

وفي اليوم التالي لذلك اليوم ، كان عند صف هيزاكو درس في اللغة اليابانية مع جيمبي . كانت الفتاة تنتظره أمام الباب :

ـ « يا سيدي ! الدواء . . » .

أسرع جيمبي بدسِّه في جيبه ، كانت آلام الصداع النصفي (الشقيقة) الأمس قد حالت بينه وبين تحضير الدرس . كان يشعر بالتعب . فقرر أن يكرس هذه الساعة لمادة التعبير . وترك الموضوع حراً . رفع أحد التلاميذ إصبعه :

ـ « سيدي ؟ حتى لو كتبنا عن المرض ؟ » .

ـ « نعم . نعم . اكتب عن أي شيء » .

ـ « سيدي . أرجو أن تغفر لي ، لا أريد أن أكون ملحاحاً ، ولكن حتى لو كتبنا عن فطور أصابع القدمين ؟ » .

وانفجر ضحك واسع هزّ أركان الصف . ومع ذلك ظلت الرؤوس كلها متجهة نحو ذلك التلميذ . ولم تشذ نظرة واحدة فتتجه نحو المدرس . كان يبدو أنهم يسخرون من زميلهم لا من جيمبي .

- « هذا حسن أيضاً ، لِمَ لا ؟ هذا المرض مجهول لديّ ، وسوف تفيدنا فيه ! » .

حين نطق بهذه العبارة ألقى نظرة نحو هيزاكو . انفجر الصف من جديد . لكن ضحكه ، في هذه المرة ، كان من سذاجة جيمبي نفسه ، كانت هيزاكو ماضية في الكتابة وقد خفضت عينيها . ولم ترفعهما أبداً . كان وجهها قد احمّر حتى الأذنين . ولما جاءت لتسليم ورقتها وجد الوقت الكافي ، حين تناولها ، لكي يقرأ العنوان : « انطباعات حول أستاذي » . ففكر في نفسه قائلاً : « لا ريب أنها تقصدني » .

- « آنسة تاماكي سوف تبقين برهة بعد انتهاء الدرس » .

فأعلنت عن موافقتها بهز رأسها خفية ونظرت اليه مطأطئة وأحس أنه مراقب .

اتجهت الفتاة نحو النافذة ، وشرعت تتأمل باحة المدرسة . وعندما أودع التلاميذ جميعاً موضوعاتهم ، استدارت ، واقتربت من المنبر . أمضى جيمبي بعض الوقت في ترتيب الموضوعات قبل أن ينهض من مكانه .

ظل صامتاً حتى بلغ البهو . وكانت (هيزاكو) تتبعه على مسافة متر . . . !

- « أشكرك على الدواء ! » .

ثم التفت :

- « هل تحدثت عن هذه الفطور مع أحد ؟ » .
- « لا . . . » .
- « ولا أي كلمة ؟ مع أي إنسان ؟ » .
- « نعم . مع الآنسة أوندا . إلا أنها أفضل رفيقاتي . . . و . . . » .
- « آه ! حسناً . مع الآنسة أوندا » .
- نعم . ولكن . . . لا أحد غيرها » .
- « إن قول شيء لإنسان واحد معناه قوله لكل الناس » .
- « لا . هذه المحادثة لا تخص أحداً سوانا . ونحن لا نخفي شيئاً عن بعضنا . وقد تعهدنا أن نقول كل شيء لبعضنا » .

ـ « هل أنتما مرتبطتان إلى هذه الدرجة ؟ » .
ـ « نعم . ولقد سمعتني أتحدث معها عن فطور أبي » .
ـ « نعم . ربما ، وأنت تزعمين أنك لا تخفين شيئاً عن الآنسة أوندا ؟ لكن هذا مستحيل . ألا تعرفين ذلك ؟ فكري ، إذا أردت أن تعرف أوندا كل شيء حتماً فعليك أن تتحدثي معها أربعاً وعشرين ساعة من أربع وعشرين . هذا اذا كانت الأفكار تتوارد على رأسك فوراً . وحتى على هذا الاساس ، ولو فرضنا أنك كنت تتكلمين من غير انقطاع فإن ذلك سيكون مستحيلاً . أحلامك في الليل مثلاً ، سوف يأتي الصباح فيفرقها . كيف ستسردينها على الآنسة أوندا ؟ تخيلي أيضاً حلماً رأيته وكنت فيه حانقة عليها تتمنين قتلها ! » .

ـ « لكنني لم يسبق أن رأيت مثل هذا الحلم ؟ » .

ـ « هذا لا يهم . هناك بعض الخلل في هذه الفكرة ، التي تدور حول الصديقة ، التي لا تخفي عنها سراً . وهي ليست سوى طريقة صبيانية تخفين وراءها ضعفك الخاص . إن غياب السر غياباً كلياً ، يمكن أن تدركه الأذهان الصافية ، أو الكائنات الشيطانية ، وليس في هذا العالم الذي نعيش فيه . إن ظهورك ، بشكل شفاف كامل ، أمام الآنسة أوندا ، يعني أنك لست موجودة على اعتبارك شخصياً ، وأنك لا تعيشين فعلاً . حاولي أن تكوني صريحة مع ذاتك ، وسوف ترين » .

وبطبيعة الحال لم تتوصل هيزاكو إلى فهم هذيانات جيمبي أو ما يدفعها إلى تصوره وصياغته من هراء تافه .

ـ « إذن . . . أنت ترى أن الصداقة مستحيلة ؟ » .
ـ « أقول أن فقدان السر هو الذي يجعلها كذلك ، ليست الصداقة فقط ، بل كل العواطف البشرية أيضاً » .
ـ « ولكن لماذا ؟ » .

كان يبدو أن الفتاة غير مقتنعة أبداً : « إنني أتحدث عن كل ما يهمني مع الآنسة أوندا » .

ـ « آه ! هل تظنين ذلك ؟ ألا تصمتين عمّا يهمك أكثر ، أو ، إن شئت ، ألا تصمتين عن الأمور ، عديمة الجدوى ، التي تشبه آخر ذرة رمل في نهاية

الشاطىء ؟ المرض الجلدي الذي نعاني منه ، أنا وأبوك ، مثلاً ، هل هو هام أو عديم الأهمية حسب رأيك ؟ أم أنه في منتصف الطريق ، بين هذا وذاك ، أليس كذلك ؟ » .

كانت أسئلة جيمبي من الخبث بحيث جعلت الفتاة تحس بأنها سوف تقع على الأرض ، كما تقع أي كتلة ، بعد أن تدور في الفضاء ، شحب لونها ، وبدا عليها أنها توشك أن تنفجر باكية ، لطّف جيمبي نبرة صوته مُعَزِّياً ، ثم استأنف كلامه :

ـ « لنأخذ أسرتك مثلاً ، هل تسردين كل شيء عنها للآنسة أوندا ؟ إن هذا يدهشني تماماً ، إنك لن تذهبي إلى درجة الحديث معها عن أسرار أبيك المهنية مثلاً . إذن ؟ أنت ترين جيداً . وفي هذا الصدد ، يخيل إليّ أن حديثكما عني لا يهمكما قليلاً أو كثيراً ، حسناً ، وهنا أيضاً ، كما أتصور ، حتى لو فعلتما ذلك ، فإنكما لن تتحدثا به كلمة كلمة . . . أنت وصديقتك . أليس كذلك ؟ » .

ظلت الفتاة صامتة ، وعيناها غارقتان في الدموع ، وأشاحت قليلاً عن جيمبي ، إلا أنها كانت تنظر إليه نظرات حادة :

ـ « أما أبوك فإنني لا أعرف شيئاً عن نشاطه بعد الحرب . لكن يمكننا أن نقول عنه إنه إنسان ناجح ، تستطيعين أن تقصي عليّ كل ذلك ، ذات يوم ، حتى لو كنت أنا شخصاً آخر غير الآنسة أوندا » .

كان التهديد واضحاً وإن كان رقيق المظاهر . إذا كان والد هيزاكو قد نجح ، بعد الحرب ، في أن يوفر له ولعائلته مسكناً بهذا الحجم فإن في وسع أي إنسان أن يشك به على أنه زجّ نفسه بتجارة مشبوهة سرية ، إن لم تكن إجرامية تماماً تنتسب إلى السوق السوداء . كان جيمبي يظن أنه ، اذا لجأ إلى هذا التلميح المخادع ، يستطيع ردع الفتاة عن التعرض لمطاردته إياها .

ومن جهة أخرى ، حضرت هيزاكو ، في اليوم التالي لتلك المطاردة ، درس جيمبي ، وفكرت في جلب الدواء له ، ووضعت عنواناً لبحثها : « انطباعات حول استاذي » . كل هذا يؤيد فرضيته التي وضعها أمس ، إذن لا مجال للقلق .

حتى لو أن جيمبي قد دفعه سكر عابر ، أو نوع من التيه الليلي ، فتعلق بخطوات هيزاكو ، فإن الفتاة هي التي تمارس عليه إغراءها الشرير ، وهي التي ربطته بمصيرها ، منذ ذلك الوقت ، ومن يدري إن كانت ، هي نفسها ، قد

أدركت مقدار قوتها ، في مشاهد الأمس ، وأنها لم تكن تناضل ضد قشعريرة سرية ؟ على كل حال ، كان جيمبي يحس باضطراب عميق خلقه فيه سحر الفتاة الغامض . وبعد تهديده المقنع فكر في نفسه قائلاً : « حسناً ، هذا يكفي » .

رفع رأسه فرأى في طرف الدهليز الآخر « نوبوكو أوندا » التي كانت تنظر إليهما :

ـ « اذهبي الآن . فقد بدأت صديقتك تقلق » .

صرفها ، لكنها ، مع ذلك ، بدلاً من أن تندفع راكضة ، كما يفعل الشبان في سنها ، نحو صديقتها ، سارت والندم بادٍ عليها ، وقد خفضت رأسها .

وبعد ثلاثة أيام أو أربعة عبّر لها عن شكره :

ـ « رائع . . . هذا الدواء . بفضلك . . . شفيت تماماً » .

ـ « صحيح ؟ » .

احمّر وجهها . وازدادت اشعاعاً . وبرزت في خدها غمازتان بديعتان معبودتان .

لكن هيزاكو لا يمكن أن تظل بريئة . فقد جاء الوقت الذي فضحت فيه نوبوكو أوندا علاقة صديقتها مع جيمبي والذي سرح فيه هذا الأخير من المدرسة .

ثم مضت السنون ، ووجد جيمبي نفسه في « كارويزاوا » . وبينما كانت عاملة الحمامات تدلك عضلات بطنه كان جيمبي يتخيل والد هيزاكو غارقاً ، في أحد المقاعد الوثيرة الأنيقة ، في قصره الأميري ، ومنهمكاً في مداواة قدميه اللذين أصيبا بالداء ذاته .

ـ « أخبريني . أظن ، من حيث المبدأ ، أنه لا ينصح بالحمامات لأولئك الذين أصيبوا بالفطور ؟ فالبخار يهيجها إلى درجة الموت . أليس كذلك ؟ » .

ثم أطلق ضحكة استياء :

ـ « هل مرّ عليك زبائن يتألمون من هذا ؟ » .

ـ « إيه . . . حسناً . . . » .

لم يكن في نية المضيفة الشابة أن تعطيه جواباً صريحاً ، .

ـ « إننا لا نعرف معنى الفطور بين الأصابع . . . تصوّر ، والسبب في ذلك أنها تصيب أقدام الأثرياء ، الأقدام التي تفسدها الراحة . للأقدام النبيلة أمراض

خسيسة . هذه هي الحياة . أما نحن حتى لو أردنا حفرها بالفطور . . . هذه الأقدام التي تشبه قوائم القرود ، لما حصلنا على شيء ، فجلدنا قاس جداً وثخين جداً » .

كانت تتحدث بينما كان هو يتذكر أصابع الفتاة البيضاء الرطبة وهي تمسد أصابع قدميه وتضغط عليها .

ـ « أما قدماي أنا . . . فحتى الفطور لا تقبل بهما ! » .

عقد حاجبيه ، هل يحتاج إلى الحديث عن هذه المصيبة ، مع هذه الخادم الجميلة ، في هذه اللحظة التي يشعر فيها بأنه على خير ما يرام ؟ ألا يستطيع أن يكفّ عن ذلك ؟ لا ريب أن السبب يرجع حتماً إلى الكذبة الأولى التي بدأها مع هيزاكو . . .

هناك ، زعم ، أمام البوابة الكبيرة ، أنه كان يتألم من الفطور ، وأنه يرغب معرفة اسم الدواء ، أول كذبة بريئة خطرت على باله ، وحين شكر الفتاة ، بعد عدة أيام ، وتحدث عن نجع الدواء ، كانت الحلقة الثانية ، في سلسلة الكذب ، قد التحمت بالأولى ، لم يكن جيمبي قد أصيب بأي مرض جلدي . كان يقول الصدق في درس اللغة اليابانية ، عندما أكد بأنه لا يعرف شيئاً عنه . أما الدواء ، فقد رماه بكل طيبة قلب . ثم جاءت المومس ، لم يفكر أبداً حين أقسم أمامها بأن الفطور تتعبه ، ومع ذلك كانت سلسلة الكذب تمتدّ وتستطيل دائماً ، إن الكذب المنطوق لا يحدث إلا مرة واحدة ، وهو لا يترك أي أثر : لقد ارتبط بخطوات جيمبي كما ارتبط جيمبي نفسه بخطوات النساء ، وعلى هذا النحو أيضاً ارتبط بالشر نفسه بلا أدنى شك ، إن العمل الشائن المقترف يرتبط بمقترفه ، ويحكم عليه باقتراف أعمال شائنة أخرى ، هكذا تتكون العادات السيئة . كان جيمبي يقتفي أثر فتاة ، لكنه ، شاء أم أبى ، كان يجد نفسه مندفعاً وراء أخريات ، إن العادة المستحكمة نوع من الفطور أيضاً ، فالمرض يكتسح ميدانه دون نهاية أو انقطاع ، قد يهدأ المرض حيناً ، ويخفّ ، لكنه ما يلبث أن يعود ثانية الى الظهور من صيف إلى آخر .

ـ « لكنني . . . أنا . . . ليست عندي تلك العفونة . هل تعلمين ؟ بل إنني لأجهل تمام الجهل . . . ماذا تشبه ؟ » .

قال هذه العبارة بعنف شديد كأنه كان يريد اقناع نفسه . ما هذه الفكرة أيضاً ؟ موازنة الرعشة اللذيذة ، النشوة المفرحة التي يشعر بها المرء بمطاردة النساء ، بالتهاب الجلد المخزي ! ألم يكن ذلك ، في واقع الأمر ، هو الكذب الأولي الذي أرغم جيمبي على القيام بمثل هذه التداعيات ؟

ومع ذلك . . . خطرت بباله فكرة جديدة ، هذا الاختراع ، الذي ابتدعه عندما تحدث عن الفطور ، أمام بوابة قصر هيزاكو ، ألا يمكن أن يرتبط بشعوره بالنقص الحقيقي الذي يرتبط ، هو نفسه ، ببشاعة قدميه ؟ فقدماه هما اللتان تنطلقان خلف النساء . وحتى صورة المرض ، ألم تكن موجودة في هذه النقطة ؟ ظل جيمبي مندهشاً من هذه الفكرة . بشاعة جزء من جسمه والبكاء من هذه البشاعة ، والتطلع نحو جمال لا يضاهى ، هل من المنطق ، في هذا العالم ، أن تتشبث الأقدام المشوهة بمطاردة الحسناوات ؟

أدارت الخادم ظهرها نحو جيمبي وشرعت تدلك ركبتيه وساقيه . كان قدماه أمام عينيها تماماً ، فقال لها فجأة كمن استولى عليه الذعر :

- « هذا حسن . شكراً » .

طوى أصابع قدميه المعقدة .

- « أتريد أن أُقَلِّمَ أظافرك ؟ أليس كذلك ؟ » .

طرحت عليه هذا السؤال بصوت متموج مسكر .

- « الأظافر ؟ تقصدين . . . أظافر هذه الأصابع الكبيرة ؟ تقلمينها . هذا ما تريدينه ؟ » .

ولكي يخفي دهشته الجنونية أضاف :

- « لا ريب أن أظافري طويلة جداً . أليس كذلك ؟ » .

احتضنت ، بيدها الناعمة العجيبة ، قدمه ، وقوّمت الاصابع المشوهة المريضة :

- « هذا يكفي . نعم . . . » .

كانت طريقتها في تقليم الأظافر دقيقة وناعمة في آن واحد .

- « من حسن الحظ أنك تعملين هنا » .
شعر الآن بشيء من الراحة فقدم لها أصابعه طائعاً .

- « ما عليّ إلا أن آتي إلى هذا المكان كلما شعرت بالرغبة في رؤ يتك . أريد أن أخضع للتدليك مثلاً . هل يكفيني أن أذكر رقمك ؟ » .

- « نعم » .
- « ليس هذا شبيهاً بمقابلة إنسان في الشارع ، نحن لا نعرف من يكون أو من أين أتى ، وهنا إما أن نبدأ فوراً بمطاردته وإما أن يختفي إلى الأبد ، لكن الأمر مختلف معك ، إنني أعرف تمام المعرفة أن كل هذا ، كل ما أقصه عليك ، يبدو لك سخيفاً أو سيئاً ، ولكن . . . » .

استسلم لها ، وأصبحت بشاعة قدميه الآن قادرة على انتزاع الدموع الحارة من عينيه ، بسبب السعادة التي أخذ يحس بها ، لم يجرؤ أبداً على عرض قدميه ، كما يعرضهما الآن ، أمام هذه البنت التي تمسك بهما بين يديها وتقلم أظافرهما .

- « يبدو ذلك سخيفاً ، لكن هذه هي الحقيقة مع ذلك ، ربما لم يحدث لك مثل ذلك ، لقاء كائن آخر ، يذهب هو في اتجاه وتذهبين أنت في اتجاه آخر . حينئذ سوف تقولين لنفسك : « وأسفاه ! » . حدث معي ذلك في معظم الأحيان . وإنني أفكر في داخلي : « أي روعة . . . ! ما أجملها ! هل يوجد في هذه الدنيا كائن واحد يتجمع فيه كل هذا الإغراء ؟ » ، في الشارع ، في المسرح ، على درجات السلم بعد حفلة موسيقية ، ثم تبتعد تلك التي رأيناها وأعرف أنني لن أراها ثانية . مع ذلك ، لا نستطيع أن ننادي المجهولين ، عن بعد ، وأن نوجه اليهم الحديث . هل هذه هي الحياة إذن ؟ عندما تحدث معي هذه الأمور أشعر بحزن مميت ، وأحس بالدوار ، ولا أعرف ماذا أفعل ! أرغب في مطاردتها هي ، المرأة ، حتى نهاية العالم . لكن ذلك مستحيل أيضاً ، ومطاردتها ، على هذا النحو ، معناه وجوب قتلها » .

آه ! حبس نَفَسه وقد أدرك أنه ذهب بعيداً ، ثم استأنف الكلام محاولاً أن يخفف من وطأة أقواله :

- « أخيراً ، ربما كنت أبالغ . عندما أريد أن أسمعك أنت ، يكفيني ، لحسن الحظ ، أن أرفع سماعة الهاتف .

أما عندك أنت بالمقابل ، فليس ذلك عملياً ، تتعلقين بأحد الزبائن ، وتتمنين رؤ يته ثانية : تظلين تعيشين على أمل رؤ يته . إنه هو الذي يقرر ، واذا حدث ذلك فإنك لن تريه أبداً . ألم تشعري بانقباض في حنجرتك أحياناً ؟ مع ذلك ، هذه هي الحياة شئنا أم أبينا . . . ! » .

كان يراقب ، بإعجاب شديد ، حركات الكتفين ، وظهر تلك الفتاة الصبياني ، وهي تقلم أظافره ، ولما انتهى هذا العمل حاولت أن تقلبه على ظهره . تردد لحظة . ثم واجهته وقالت :

ـ « أظافر اليدين ؟ » .

رفع يديه إلى ما فوق صدره وفحصهما .

ـ « انها أقل طولاً من أصابع القدمين كما يبدو . وأقل وسخاً أيضاً » .

لم يكن ذلك الرفض شكلياً . واستأنفت الفتاة قصّها .

انتبه إلى أن الفتاة قد وجدته قاسياً . بل إنه هو قد حكم على نفسه بذلك الحكم ، بكلماته الخاصة التي تفوّه بها بشيء من الطيش والنزق . فهل ينبغي فعلاً أن يبلغ الذروة ، بعد عملية المطاردة ، باللجوء إلى القتل ؟ لقد اكتفى ، هو جيمبي ، بالقتاط حقيبة اليد الخاصة بمياكو ميزوكي ، وكان يجهل تماماً إن كانت الظروف سوف تساعده على رؤ يتها ثانية ، معها أيضاً . حدث لقاء بينهما ، لكنهما ما لبثا أن ابتعدا ، أحدهما عن الآخر ، ومع هيزاكو تاماكي . لقد انتزع نفسه منها . وظلت الصعوبة ذاتها في عدم القدرة على رؤ يتها مرة أخرى ، إنه لم يتابع ملاحقتها ناوياً قتلها ، لعل الأولى والثانية الآن ، على حدٍ سواء ، قد ضاعتا منه الى الأبد ، وغابتا في هذا العالم الذي لا يطاق .

بدا له وجها مياكو وهيزاكو بوضوح صارخ ، وازن هذين الوجهين بوجه عاملة الحمام :

ـ « من الغريب ألا يعود أحد الزبائن عندما تهتمين به بمثل هذا الحب ! » .

ـ « لكن . . . هذا عملي » .

ـ « هذا عملي ! وبصوت مثل صوتك الذي تستطعين أن تقولي به هذه الأمور ! » .

استدارت الفتاة ، أما هو فقد أغلق عينيه كمن اعتراه الخجل . لقد بهرت

بقعة حامل النهدين البيضاء عينيه اللتين كانتا نصف مغلقتين :

قال مخاطباً هيزاكو مرة :

- « انزعيه » .

وتشبثت أصابعه بتلك القطعة من القماش فهزت هيزاكو رأسها ، حينئذ أمسك بحامل النهدين ، بكلتا يديه ، وجرّه بكل قواه ، انقطع المطاط ، وظل الحامل في يد جيمبي اليمنى . أما هيزاكو ، فقد ثبتت عينيها وهي عارية النهدين بنوع من الشرود ، بتلك اليد وتلك القطعة من الثياب ، حينئذ رماه جيمبي . . . وفتح عينيه ثانية ، كانت مضيفة الحمام منهمكة في قصِّ أظافره ، نظر إلى يده اليمنى . كم سنة كان عمر هيزاكو آنذاك يقل عن عمر المضيفة ؟ اثنتان ؟ ثلاث ؟ وجلد هيزاكو أيضاً هل اكتسب ، في نهاية المطاف ، ذلك النصوع الشفاف الشاحب ؟ وشمّ جيمبي رائحة قطعة القماش القطنية ذات اللون الكحلي ، ذلك القماش الذي كان من صنف « كوروفيه » ذي الرسوم المتداخلة . فانبثقت ، في ذاكرته ، صورة الثوب الذي كان ، هو نفسه ، يرتديه عندما كان طفلاً ، وربطه بذكرى تنورة هيزاكو الصوفية الكحلية . كانت تبكي وهي ترتديها . وكان جيمبي ، من جهته ، يكفكف دموعها جاهداً .

لقد انسحبت كل قوة من بين أصابع يده اليمنى : تلك اليد التي كانت الفتاة تمسك بها ، بينما كانت تقص أظافره بمقص خبير . ذلك الاحساس أيضاً . إنه يعرفه . كان ممسكاً بيد ياغوي بين يديه بكل استرخاء ، وكان يمشي على البحيرة المتجمدة على مقربة من القرية التي كانت مسقط رأس أمه .

سألته قبل أن يبلغا الحافة :

- « ماذا جرى لك ؟ » .

لو أنه تمكن من الاحتفاظ بهذه اليد بين يديه بشيء من الحزم ، فهل ينتهي به الأمر فعلاً إلى دفع ياغوي في فجوة في الجليد ؟

لم تكن ياغوي وهيزاكو من أولئك المارة الذين نصادفهم في الطريق . كان جيمبي يعرف من هما ، ومن أين جاءتا ، وكان يقيم معهما علاقات خاصة ، ويراهما في معظم الأحيان ، كما يشاء . ومع ذلك أخذ على عاتقه مطاردتهما . ومع ذلك أيضاً ، انفصل عنهما .

سألت المضيفة الشابة :

ـ « الأذنان . . . ؟ » .

ـ « وماذا تريدين أن تفعلي بالأذنين أيضاً ؟ » .

ـ « تنظيفهما . اجلس من فضلك » .

انتصب . وجلس على حافة سرير التدليك ، شعر أن الفتاة كانت تُمَسِّدُ شحمة الأذن بكل رقّة ، ثم أدخلت إصبعها في الأذن ذاتها ، وشرعت تحركه فيها بمهارة . انطلق الهواء المحبوس فيها فحرّر التجويف . ثم شعر كأن عطراً لطيفاً قد تغلغل في مكانه ، وتناوبت أصوات أثيرية في التغلغل الى سمع جيمبي ، وكانت ترافقها تموجات غير مدركة ، الآن ، كان يخيل اليه أن الفتاة تطبع ، بيدها الحرة ، حركات خفيفة جداً ، مكررة ومعادة ، فوق إصبعها الذي دسّته في أذنه .

تنهد وقد شعر بأنه فريسة نشوة غريبة :

ـ « لكن . . . ماذا أنت فاعلة ؟ يخيل إليّ أنني أحلم ! » . أدار رأسه . لكنه لم يتمكن من رؤ ية أذنه بطبيعة الحال . ثنت الفتاة ذراعها ، ودسّت إصبعها من جديد ، وشرعت تدوّره ببطء شديد .

ـ « كأن مخلوقاً من مخلوقات الأحلام يهمس في أذني كلمات الحب . . . ألا تستطيعين ، بإصبعك هذا ، أن تستأصلي من أذني كل الأصوات البشرية التي وسختها ، على ألا تتركي فيها إلا متعة صوتك الخاص . . . ؟ على هذا الأساس ، سوف ترحل كل الأكاذيب . . . » .

قربت الفتاة جسدها ، نصف العاري ، من عري جيمبي ، فشعر بأنه يسبح في موسيقى الفردوس .

ـ « ألم أسبب لك بعض الآلام ؟ » .

انتهت جلسة التدليك . وظل جيمبي جالساً . أما الفتاة فقد شرعت تزرر قميصه ، وتلبسه جواربه ، وتربط حذاءه . وتركت له فقط أمر ربط زناره وعقد ربطة العنق . ظلت المضيفة قريبة منه ريثما تناول عصير الفاكهة لكي يرطب جسمه بعد خروجه من الحمام .

رافقته حتى الباب الكبير . وجد نفسه في الفناء . خيل اليه أنه رأى عش

عنكبوت ضخم ينتصب أمامه في الليل البهيم . وثمة عصفوران أو ثلاثة ، من تلك التي تسمى « العصافير ذات النظارات » ، وبعض الحشرات المختلفة كانت قد وقعت أسيرة فيه . كان ريش العصافير الأزرق ، والحلقة الجميلة حول العيون ، تنفعل بكل وضوح . لعل تلك العصافير ، عندما نشرت أجنحتها ، قد استطاعت أن تقطع الشبكة التي كانت تحبسها ، لكنها ظلت جامدة في مكانها ، كأنها كانت سجينة ريشها ، أما العنكبوت فقد خشي أن تمزقه ضربات المناقير وظل مسمراً في مركز اللوحة وقد أدار ظهره نحو العصافير .

انتقلت نظرة جيمبي نحو الغابة المظلمة . كان هناك على الشاطىء ، فيما وراء المكان الذي ولدت فيه أمه ، حريق قد اندلع في أعماق الظلام . استولى شيء من السحر على كيان جيمبي ، وجذبه نحو ذلك اللهيب المنعكس في الظلمات السائلة .

لم ترفع ميياكو ميزوكي شكوى لسرقة حقيبتها اليدوية والمائتي ألف (ين) . من المؤكد أن مبلغاً ضخماً كهذا ، كان يمكن أن يؤثر في مجرى حياتها . بيد أن الإجراءات بدت لها غير عملية ، لأسباب مختلفة ، إذن ، لم يكن من الضروري أبداً أن يهرب جيمبي إلى « شينشو » بدون ريب ، مع ذلك ، لو فرضنا أنه لوحق ، ألا تكون هذه الملاحقة بسبب المال ، المال الذي أصبح في حوزته الآن ؟ إنه لم يسرقه في الحقيقة ، إن هذا المال هو الذي جاء إليه وتشبث به ، وهو الذي يهيمن عليه أينما ذهب .

أو لنفرض أنه سرقه جدلاً . ألم يكن يريد أن ينبىء ميياكو به فوراً ؟ وفي هذه الحال هل كان فعلاً يستحق اسم السارق ؟ وميياكو ذاتها ، لم تكن ، من جانبها ، تزعم بأنها سلبت . كما أنها لم تكن واثقة من أن جيمبي هو السارق . لم يكن أحد في الشارع سواه في اللحظة التي قذفت فيها المحفظة ، فمن الطبيعي جداً أن يشتبه به . لكنها ، هي ذاتها ، لا تستطيع القول إنها رأته وهو يسرقها ، رأته بعينها . يمكن أن يكون عابر سبيل آخر ، غير جيمبي ، هو الذي أخذ على عاتقه التقاط المحفظة .

ما إن دخلت في بيتها حتى نادت الخادم :

ـ « ساشيكو ! ساشيكو ! محفظة يدي . . . لقد سقطت مني . اذهبي وابحثي لي عنها . هل تريدين ؟ هناك ، أمام الصيدلية . بسرعة ! » .

ـ « حسناً » .

ـ « إن لم تسرعي فإن شخصاً آخر سوف يأخذها » .

وصعدت ميياكو لاهثة إلى الطابق .

- « يا آنسة ! تقولين إنك أوقعت محفظة يدك ! » .

كانت « تاتسو » أم « ساشيكو » . وقد كانت أول من عملت في هذا البيت ، ثم جاءت بابنتها ، أما ميياكو ، التي كانت تعيش وحيدة في هذا المنزل المتواضع ، فلم تكن بحاجة إلى خادمتين . لكن تاتسو عرفت كيف تستغل الاضطراب السائد في هذا المنزل ، لكي تحصل على حقوق مرتفعة ، وتصبح أرفع من مجرد خادمة ، كانت تخاطب ميياكو بلقب « آنسة » تارة وبقلب « سيدة » تارة أخرى . عندما يكون العجوز « آريتا » موجوداً في البيت فهي « سيدة » دائماً ، وفي أحد الأيام ، شعرت ميياكو بالحاجة إلى أن تبوح بما في نفسها فأسرت لها دون رغبة قوية :
- « كنا في نزل في كيوتو . أنت تعرفين ، حين أكون وحيدة كانت الوصيفة تقول لي : « آنسة » . وأمام آريتا : « سيدة » على الرغم من البون الشاسع بين عمرينا . . . وعندما كانت تناديني : « آنسة » كان بوسعي أن أظن أنها تفعل ذلك لتسخر مني . ولكن كان يخيل إليّ أنها كانت تشفق عليّ . وكان ذلك يؤثر في نفسي تأثيراً عظيماً . . . » .

- « إذن . . . سوف أفعل مثلها » .

وهذا ما فعلته بعد ذلك دائماً .

- « ولكن . في نهاية الأمر يا آنسة ، كيف يمكن أن نترك محفظة يد تقع منا ؟ لم تكوني تحملين معها شيئاً آخر . أليس كذلك ؟ تلك المحفظة وحدها ؟ » .

كانت تاتسو أقصر بكثير من ميياكو . وكانت تتفحص وجهها ، وعيناها الصغيرتان تدوران في محجريهما .

وفضلاً عن ذلك لم تكن ثمة حاجة لديها في أن تجحظ عينيها لكي تظهرا مستديرتين ، فهما عينان لامعتان حادتان . هل كان شق الجفون الأقصر ، لتحدث عينا ساشيكو الصغيرتان المفتوحتان ، أثراً سحرياً تماماً ، بينما عينا أمها ، اللتان تحملان الخصائص ذاتها ، لا تفعلان شيئاً سوى أن تصبحا كرويتين زائغتين ومزعجتين في نهاية المطاف ؟ إن نظرة تاتسو توحي ، في واقع الأمر ، بشيء لا يدري أحد ما هو ، سرّي ومنطو جداً في أعماقها ، بل إن لون البؤبؤ ، الرمادي الأحمر الباهت ، يطبع تعبيرهما بشيء من البرودة .

ووجهها ذو البشرة الصافية ، كان هو أيضاً ، صغيراً ومستديراً . رقبتها قوية ، وصدرها أقوى أيضاً ، وجسدها كله أعرض من الأعلى باتجاه الأسفل ويستقر على قدمين دقيقتين. إن صغر قدمي ابنتها يدهشان المرء ويسحرانه، أما رقة العرقوب وهشاشة القدم عند تاتسو فتوحيان بهيئة ماكرة لا يمكن تحديدها . كانت لكل واحدة منهما ، الأم والبنت ، قامة قصيرة .

كان قذال تاتسو السمين يمنعها من رفع رأسها ، بصورة كافية ، إذا أرادت أن تنظر إلى ميياكو في وجهها ، لذا لم تكن تستطيع أن تنظر إليها الا بطرف عينيها من الأسفل ، وكان ذلك يزيد ، عند ميياكو ، الشعور بأنها عارية أمامها في عزِّ النهار .

تنهدت كأنها تريد تقريع الخادم :

ـ « إذا كنت قد فقدتها فقد فقدتها ! أنت ترين تماماً أن هذه الحقيبة ليست معي . أليس كذلك ؟ » .

ـ « ولكن . . . في نهاية الأمر يا آنسة . لقد قلت لي تواً أمام الصيدلية تماماً ، إذن ، فأنت تعرفين أين ؟ هناك ، على مقربة منا ، لا يمكن أن تكوني قد فقدتها ، مع ذلك ! هيا . . . حقيبة يد . . . » .

ـ « آه ! اذا كانت قد ضاعت فقد ضاعت ! » .

ـ « مظلة أيضاً ، يمكن أن ننساها هنا أو هناك ، أما إضاعة شيء نمسك به بين يدينا ! هل يمكن للقرد أن يفقد توازنه وهو في أعلى الشجرة ؟ » .

كانت الاستعارة غريبة مستهجنة .

ـ « ألم يكن في مقدورك التقاطها بعد أن لاحظت أنها سقطت منك ؟ » .

ـ « آه ما هذا الذي تقولين ؟ ! ما كنت لأقول إنني أضعتها لو أنني كنت أعرف في أي لحظة طارت من يدي ! » .

أحست ميياكو أنها ظلت في مكانها في الطابق جامدة ، وأنها ما زالت في ثياب المدينة ، ذلك أمر أكيد . كذلك كانت خزانة الثياب والخزانة الصغيرة المترعة بالأشياء اليابانية ، موجودتين هناك أيضاً ، في تلك الغرفة التي مُدَّت فيها أربعة حُصُر ونصف الحصير ، ولقد كان من الممكن عملياً أن تبدل ثيابها في هذه

الغرفة ، التي كانت مجاورة تماماً غرفة الحصر الثمانية ، التي كانت ميياكو تقتسمها مع العجوز آريتا ، عندما يقوم هذا الأخير بزيارتها ، ولكن ، عندما شرعت ترتب ثيابها على الرف ، تأكدت من مقدار سطوة تاتسو في الطابق الأرضي .

ـ « اذهبي وآتني بمنشفة . هل تريدين ؟ غطسيها في الماء البارد . فأنا غارقة في العرق قليلاً » .

كان في ذهنها أن هذا الطلب سوف يجبر تاتسو على النزول ، وأنها هي سوف تستفيد من ذلك لتتعرّى وتجفف جسدها الدبق .

ـ « حسناً . هل تريدين طشت ماء مع بعض قوالب الثلج لكي تترطبي ؟ » .

ـ « لا ، لا ، لا تتعبي نفسك » .

عقدت ميياكو حاجبيها .

كانت تاتسو على الدرج عندما فتح الباب . لعلع صوت « ساشيكو » في أرجاء المنزل .

ـ « ماما ! لقد فتشت من الصيدلية حتى خط الترام إلا أنني لم أر حقيبة السيدة » .

ـ « هذا . . . هذا كان متوقعاً ! اصعدي إليها وأخبريها ، وفي هذه المناسبة . . . هل مررت لتعلني للشرطة عن السرقة ؟ » .

ـ « أوه ! هل كان يجب أن أفعل ذلك ؟ » .

ـ « ولكن أخيراً ، بماذا تفكرين ؟ اركضي إلى هناك فوراً » .

ـ « ساشيكو ! ساشيكو ! » .

أتى صوت ميياكو من الطابق :

ـ « لا فائدة من رفع الشكوى . فالحقيبة لا تضم شيئاً ثميناً » .

لم تجب ساشيكو . لكن تاتسو تابعت هبوط الدرج . كان الطشت موضوعاً على لوح من الخشب . نزعت ميياكو تنورتها وظلت في ثيابها الداخلية :

ـ « هل تريدين أن أفرك لك ظهرك ؟ » .

صاغت تاتسو عرضها بعذوبة متكلفة .

ـ « لا . . . أشكر لك . . .

تناولت ميياكو المنشفة الندية ، التي هيأتها الخادم ، ومدّت ساقيها ، وطفقت تمسحهما ، وتنظف ما بين الأظابع . كانت قد نزعت جواربها ولفتها على شكل كرة . التقطتها تاتسو ونشرتها من جديد .

قالت لها ميياكو وقد ألقت اليها المنشفة :
ـ « اتركيها . يجب أن أغسلها » .

صعدت ساشيكو بدورها ، ركعت على حصير الغرفة المجاورة ، ووضعت راحتيها على الأرض ، قرب العتبة ، وانحنت انحناءة شديدة :
ـ « لقد نفذت أوامرك . ولم أجد المحفظة » .

كانت نبرتها الاستعراضية غريبةً وساحرة . أما تاتسو فقد كان موقفها ، إزاء ميياكو ، يختلف تبعاً للظروف ، فهي تارة مهذبة إلى حد الإفراط ، وتارة فظة إلى درجة عظيمة ، وكانت تستطيع أيضاً أن تتظاهر بالبساطة اللزجة ، أما مع ابنتها فقد كانت ، بالمقابل ، ملحاحة متشددة في كل ما يمس « الإيتيكيت » . علمتها كيف تربط خيوط حذاء العجوز آريتا عندما يريد مغادرة المنزل . لقد كان يشكو من مرض عصبي ، وعندما كان يريد أن ينهض كان يعتمد على كتف ساشيكو التي كانت تجثو عند قدميه . وكانت تاتسو تشتهي لابنتها مكان ميياكو لدى هذا العجوز . وكانت ميياكو تعرف ذلك ، منذ عهد طويل ، بيد أنها كانت تجهل إن كانت تلك الصبية ، التي تبلغ السابعة عشرة من العمر ، قد عرفت ذلك السر ، كما أنها لاحظت أن تاتسو كانت تعلم ابنتها كيف تعطر نفسها ، وحين أشارت ميياكو إلى ذلك أمام تاتسو جاءها الجواب :
ـ « لأن رائحة جسم هذه البنية قوية » .
ثم أضافت الخادم :
ـ « ألا تريدين أن تذهب ساشيكو إلى الشرطة للإعلان عن السرقة ؟ » .
ـ « أنت عنيدة . . . ألست كذلك ؟ » .
ـ « لكن هذا مؤسف مع ذلك . ألا ترين ذلك ؟ كم من المال كان عندك ؟ » .
ـ « لم يكن عندي أي مال » .

أغلقت ميياكو عينيها ، ورسمت على جفونها خطاً رطباً ، وظلت ساكنة برهة ، ومن جديد خفق قلبها خفقاناً سريعاً .

كانت تملك دفترين صغيرين مصرفيين . نظم الأول باسم تاتسو ، وهو يعود إلى المال الذي تختلسه من العجوز آريتا . وكانت تاتسو تحثها على تلك الأدوار الخفية وتحتفظ بالدفتر الصغير بين يديها ، أما المائتا ألف (ين) فقد حصلت عليهما بالدفتر الثاني ، الذي سجل باسم ميياكو ، هذه المرة ، إذ سحبتهما من المصرف دون علم الخادمة . أما العجوز آريتا فإنه سوف يندفع في طرح الأسئلة المزعجة حول الطريقة التي تنوي ميياكو صرف هذا المبلغ بها وعمّا اذا كانت له علاقة بهذه الطريقة . لذا كان من الضروري جداً عدم رفع شكوى قبل التفكير العميق .

كانت المائتا ألف (ين) تمثلان ، في ذهن ميياكو ، ثمن شبابها ، بشكل من الأشكال ، ثمن هذا الزمن القصير جداً الذي يشاهد تفتح الزهرة : الزمن الذي تنازلت فيه ميياكو عن بكارة جسمها لشيخ ذي رأس أشيب ، نصف ميت تقريباً . إن نسغ ميياكو نفسه كان كأنه قد تركز في هذا المال . وإن ضياعه يعني أنها أضاعت ، في ثانية واحدة ، كل ما بقي لديها ، إنها لم تتمكن من تصديق ذلك . من المال الذي ننفقه تظل ذكرى على الأقل . ولكن اذا وفرناه قرشاً بعد قرش ، ثم فقدناه ، فإن ذكراه نفسها تصبح مرة . . .

بيد أن ميياكو ، عندما فقدت ، على هذا النحو ، مائتي ألف (ين) ، أبدت قشعريرة عابرة : هي قشعريرة لذة . ثم إن الخوف الذي بعثه في نفسها الرجل الذي كان يطاردها ، ألم يكن ناجماً عن المفاجأة الخاطفة التي جعلتها تدور على عقبيها وتلوذ بالفرار ؟

كانت تعرف ، بطبيعة الحال ، أنها لم توقع حقيبة يدها فقط ، ولكن ميياكو لم تكن تفهم فيما اذا كانت قد سددت لطمة ، أو أنها اكتفت بالقاء الحقيبة ، وهي ، في ذلك ، لم تكن أفضل من جيمبي ، الذي لم يتوصل إلى أن يقرر فيما اذا كان قد ضرب ، أو أن شيئاً قذف على وجهه . مع ذلك ، شعرت بشدة الضربة المضادة . استولى على يدها نوع من الاسترخاء ، وعلى ذراعها ، وصدرها ، ثم على جسمها كله ، فغرق كيانها كله في عذاب رائع .

كأن مطاردة الرجل قد كوّمت ، في داخل ميياكو ، ما لا يعرف من أنواع الغموض ، وأن هذه الفوضى قد اضطرمت والتهبت . كأن شبابها الخاص الذاوي ، في ظل العجوز آريتا ، قد بعث حياً من جديد لكي يثأر ، بهذه الرعشة ، بصورة من الصور ، ذلّ كل تلك الأيام الطويلة ، وكل تلك الشهور الطويلة ، التي احتاجت اليها ميياكو ، لكي توفر مبلغ المائتي ألف (ين) ، إن اختفاء المال ، في نهاية الأمر ، ليس إلا مجرد فقدان ، لكنه كان يمكن أن يمثل الفدية التي وجب على ميياكو دفعها بدورها .

إن مبلغ المائتي ألف (ين) ، مع ذلك ، لا علاقة له بذلك الحادث الطارىء ، وسواء ضربت الرجل بالحقيبة أو أنها ألقتها على وجهه ، فإن ما تحتويه آنذاك كان بعيداً عمّا يدور في ذهنها . بل إنها لم تنتبه أيضاً إلى أن الحقيبة قد فرّت من يديها ، كما أنها لم تذكر اللحظة التي استدارت فيها ولاذت بالفرار ،ومن وجهة النظر هذه ، يصحُّ القول بأنها تركت الحقيبة تسقط منها ، الحقيقة أن ميياكو ، حتى قبل أن تضرب الرجل ، نسيت الحقيبة كما نسيت المال الذي تحتويه ، كل ما كانت تهتم به كان ذلك الأمر الذي يتلخص في أن رجلاً كان يلاحقها . والشعور بهذه الملاحقة ، كان قد مسح كل كيانها ، كما تفعل الموجة ، وبنتيجة ذلك ابتلعت الحقيبة فوراً بسبب هذا التدفق .

حين عبرت ميياكو الباب ، كانت تحتفظ ، في داخلها ، بهذه المتعة الصماء ، وكأنها كانت تريد أن تخفيها ، أو أن تخفي ، عن نفسها ، أنها ركضت نحو الطابق .

خاطبت تاتسو ، بعد أن جففت عنقها وذراعيها :
ـ « إنزلي . . . من فضلك ، أريد أن أنزع ثيابي » .
فردّت عليها الخادم ، بعد أن نظرت اليها نظرة مريبة :
ـ « ولماذا لا تفعلين ذلك في الحمام ؟ » .
ـ « ليست بي رغبة في الحركة » .
ـ « آه ! حسناً . ولكن هل تركت حقيبتك تقع منك أمام الصيدلية بالضبط ، بعد أن تركت شارع الترام ؟ هل هذا هو ما قلته ؟ مع ذلك . . . سوف أمرّ على مفوضية الشرطة . . . » .
ـ « لا . أنا لا أتذكر المكان الصحيح » .

ـ « وكيف ذلك ؟ » .
ـ « حسناً . كان هناك من يتبعني و . . . . » .

ولما كانت ميياكو على عجلة من أمرها ، وترغب في البقاء وحيدة ، بغية التخلص من آخر آثار انفعالها ، فقد تحدثت كثيراً ، حدجتها تاتسو بعينيها الكرويتين :

ـ « كيف ؟ أيضاً ! » .
ـ « إيه . نعم . هكذا » .

قالت ميياكو هذه الجملة الأخيرة بلهجة التحدي . بيد أن الاعتراف ، الذي كان يخنق التموجات الدقيقة للذتها ، لم يترك وراءه إلا عرقاً بارداً وإحساساً بالشلل .

ـ « لقد عدت اليوم مباشرة ؟ ألم تتسكعي مع أحد الرجال في الشوارع ؟ يخيل إليّ أنك أضعت الحقيبة بهذه الطريقة ! » .

التفتت تاتسو نحو ساشيكو التي لا تزال راكعة على ركبتيها :
ـ « حسناً . . . بماذا تحلمين أنت ؟ » .

احمر وجه الفتاة ، وبانت الدهشة في عينيها ، وتحاملت على نفسها مترنحة ، وحاولت أن تنتصب على قدم واحدة .

وفضلاً عن ذلك ، لم تكن ساشيكو نفسها تجهل أن ميياكو كانت ، في معظم الأحيان ، تتعرض لمطاردة الرجال لها ، كما أن العجوز آريتا أيضاً كان على علم بذلك. فقد همست في أذنه ، ذات يوم ، في قلب « جينزا »
ـ « ماذا ؟ » .
أراد الشيخ أن يستدير .

ـ « لا ، لا تنظر ! » .
ـ « ولِمَ لا ؟ وما الذي جعلك تعتقدين بأن هناك من يتعقبك ؟ » .
ـ « إنني أحس بذلك . هذا كل شيء . الرجل الذي قابلناه قبل برهة . طويل . قبعة زرقاء . يخيل إليّ . . . » .

ـ « لا . لم ألحظ ذلك . ألا يجوز أنك أنت قد أشرت إليه عندما قابلنا ؟ » .

ـ « أنت تقول أي شيء . ما رأيك لو ذهبت اليه وسألته قائلة : يا سيدي ، هل أنت عابر طريق بسيط أم أنك تنوي أن تمثل دوراً في حياتي ؟ » .

ـ « هل يسعدك ذلك ؟ هيه ! » .

ـ « آه كم أرغب في سؤاله . . . تعال لنتراهن إلى أين سيتبعني . . . إنني راغبة في الرهان ، طبعاً ، إذا رآني برفقة رجل متقدم في السن ، يحمل بيده عصا ، فإن الأمر لن يسير سيراً حسناً ، اصغ إليّ ، اذهب إلى دكان بيع القماش هناك . وراقبني ، أما أنا فسوف أتابع طريقي ، حتى نهاية الشارع ، ثم أعود . إذا ظلّ خلفي ربحت تنورة صيفية بيضاء . ويشترط ألا تكون من الكتان . هل أنت موافق ؟ » .

ـ « واذا خسرتِ ؟ » .

ـ « حسناً . . . تستطيع عندئذ أن تنام طول الليل ورأسك على ذراعي

ـ « ولكن . . . إذا استدرت أو إذا خاطبته . . . يكون هذا غشا »

ـ « موافقة » .

هذا الرهان ، كان العجوز آريتا يتوقع أن يخسر فيه . وقد [illegible] في أعماق نفسه : حتى لو كان الأمر على هذه الشاكلة فإنها سوف تسمح لي بوضع [illegible] على ذراعها طول الليل . نعم ، ولكن إذا نمت فما يدريني أنها ستسحبها ؟ وأرسل ابتسامة مرة الطعم . دخل عند بائع القماش . وبينما كان يراقب ميياكو ، والرجل خلفها ، بدهشة شديدة ، أحس بالشباب يتدفق في أعماق روحه . ليس من الغيرة . أبداً ، فالغيرة مستبعدة .

إن هذا الرجل العجوز يحتجز في بيته الخاص امرأة في الثلاثين من عمرها ، بدعوى مفضوحة هي « الضرورات البيتية » . كانت تلك المعشوقة أكبر من ميياكو بعشرة أعوام ، إن هذا الرجل السبعيني يتخيل نفسه نائماً مع أمه ، عندما يريح خده على ذراع واحدة من هاتين المرأتين ، ويضمّ عنقها ، ويضع حلمة أحد ثدييها بين شفتيه . لقد كانت الأم وحدها قادرة أن تجعل هذا الشيخ ينسى هموم الدنيا . لقد أُنذرت العشيقة ـ الخادم ، كما أنذرت ميياكو ، بمصيرهما واحدة بعد الأخرى . لقد كان الشيخ ، في بعض الأحيان ، يؤكد أمام ميياكو ، على صورة الوعيد ، أنه اذا صدف أن توصلت ، هي والأخرى ، الى الغيرة من بعضهما ، فإن الغضب ، الذي سوف يبدر منه ، قد يدفعه إلى أعمال عنف خطيرة جنونية ،

في الوقت الذي ينتظر فيه الموت فجأة ، من توقف محتمل في القلب . كانت هذه الرؤ ية أنانية . لكن بين الأبالسة ، التي تسكن بدن ذلك الرجل العجوز ، كانت تبرز عاطفة الاضطهاد . أما أنه كان يعاني من ضعف في القلب ، فذلك أمر كانت تعرفه ميياكو معرفة جيدة ، وكم من مرة ، عند الضرورة ، ضغطت بيديها الناعمتين ، أو أراحتا خدها الجميل ، بكل حذر وحيطة ، فوق صدره ، مع ذلك لم يكن يبدو أن « أوميكو » عديمة الغيرة تماماً . أما ميياكو ، فقد علمتها الخبرة أن تنبذ الغيرة ، متنبئةً أن العجوز آريتا سيقدم لها كثيراً من النفقات ، في ذات يوم . أما أن تبدي امرأة شابة الغيرة على هذا الشيخ فذلك أمر يدعو للرثاء ، ويبين أنها تنظر إلى الحياة نظرة اشمئزاز .

كان العجوز آريتا يصف أوميكو غالباً بأنها جنية طيبة في مسكنه ، وكان هذا الوصف يدفع ميياكو إلى التفكير بأنها هي ، في هذه الحال ، ليست سوى بائعة حب . ولكنه ، سواء أكان عند هذه أو تلك ، ما كان يبحث ، في واقع الأمر ، إلا عن الأم ، وإن كان ذلك غير واضح في ذهنه . لقد حلّت زوجة أب شرسة محل أمه الحقيقية بعد إعلان الطلاق بين أبويه ، حين كان عمره لا يتعدى سنتين . كم مرة سرد العجوز هذه القصة على مسمع ميياكو !

ومن وقت لآخر كان يضيف :

ـ « كان يمكن أن أكون أكثر سعادة لو أن شخصاً مثلك ، أو مثل أوميكو ، جاء ليعتني بي ، ولو على شكل حماة ! » .

ـ « آه ! أنت تظن ذلك ! لو كنت صهري لأريتك كل الألوان ! أنا واثقة أنك كنت صبياً مفزعاً » .

ـ « كنت ولداً فاتناً » .

ـ « لكنك الآن تملك والدتين لطيفتين تعوضان لك كل ما عانيت منه يوم كنت ولداً ، وهذا حظ مع ذلك .

لقد قالت هذه العبارة بشيء من التهكم .

ـ « أوه ! نعم . وأنا لا أنسى فضلكما » .

وفكرت ميياكو بشعور قريب من الغضب : لماذا هذا العرفان بالجميل ؟ ومع ذلك ، إنها تحس ، أمام هذا الرجل ، الذي يكاد يناهز السبعين ، والذي جفّ

جلده ، والذي كتب عليه أن ينحسر الى هذا الوضع ، بأن ثمة موعظة تمسّ صلب الحياة نفسها .

كان آريتا يحب العمل دائماً ، لذا كان يشعر بشيء من الانزعاج من رخاوة الحياة التي تستسلم لها ميياكو . إنها إذا وجدت وحيدة لا تعرف بأي شيء تسلي نفسها ، وكل طاقة شبابها تنحصر في هذه الحياة ، التي تمضيها في انتظار زيارات شيخ عجوز ، لا تنتظره في الوقت ذاته ، وتاتسو . . . ماذا يهمها في هذا الأمر ؟ طرحت ميياكو هذا السؤال بشيء من الحيرة . لقد كانت تلك الخادم ، التي تعرف أن ميياكو كانت ترافق العجوز دائماً في تنقلاته ، هي التي أوحت اليها بتزوير مستندات الفندق . كان الأمر يتلخص في زيادة الفواتير ووضع الفرق جانباً ، لا ريب أن عدداً من الفنادق يلجأ إلى هذا النوع من الغش ، لكن ميياكو كانت تشعر بالشقاء من تلك الفعلة .

- « حسناً . ولكن ، على الأقل ، أرجو ألا تنزعجي عندما تتناولين شيئاً من المرطبات ، وعندما تدفعين البقشيش . إنك تسددين الحساب دائماً في غرفة جانبية . أليس كذلك ؟ وعندما يتعلق الأمر بتحديد الخدمة اذهبي إلى أبعد ما يمكن ، اجبري السيد على أن يكون شديد الكرم ، ينبغي عليه أن يصون المظاهر . وسوف يدفع . حينئذ تأخذين الحساب كله ، وعندما تذهبين إلى تلك الغرفة - لنقل إن معك ثلاثة آلاف (ين) - فما عليك إلا أن ترفعي منها ورقة ، من فئة الألف ، ثم تدسيها في قميصك الداخلي ، أو في حزامك : ولا من رأى ، ولا من سمع ! » .

- « إنني لا أستطيع أن أصدق ذلك ! أن أتخيل فعل شيء حقير وصغير . . . ! » .

لكن العملية ، في نظر تاتسو ، لا تتعلق بالأشياء الصغيرة !

- « ولماذا حقير ؟ أبداً . عندما يتعلق الأمر بالتوفير لدى النساء أمثالنا ، يمكن أن نقول إن السواقي الصغيرة تخلق الأنهار الكبيرة . ولا مفر من ذلك ! المال يذهب يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر » .

ثم أضافت مندفعة :

- « أنا في جانبك يا سيدتي ! لماذا يتغذى مصاص الدماء العجوز هذا بشبابك مجاناً ؟ » .

كانت الخادم ، عند زيارات العجوز آريتا ، تعدل كل شيء في سلوكها ، حتى صوتها ، كما تفعل مضيفة الحانة . وفي هذه اللحظة أيضاً ، عندما كانت تخاطب ميياكو ، اتخذت نبرة صوتها طابعاً باعثاً على القلق ، ارتعشت ميياكو . لم يكن سبب ارتعاشها صوت تاتسو أو الكلمات التي تفوّهت بها . إنه التفكير بهذا المال الذي جمعته بالكفاح والتعب ، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر ، حيث كانت تلك الشهور والأيام ، في الوقت ذاته ، تفرّ في اتجاه معاكس ، بعد أن انتزعت من ميياكو جوهر شبابها .

لم تتلقّ ميياكو التربية ذاتها التي تلقتها تاتسو . كانت مُدللة مُغَنَّجة ، حتى اندحار اليابان ، لذا كانت الفكرة البسيطة ، التي تدور حول الإنقاص من فواتير الفندق ، تبدو غريبة في نظرها ، إنها لا ترى في نصائح تاتسو المثيرة للنزق إلا دليلاً على أنواع الاختلاسات التعيسة التي تمارسها الخادم في داخل المطبخ . إن دواء بسيطاً ضد الزكام كان يزيد من خمسة إلى عشرة (ينات) اذا اشترته هذه الخادم ، وليس ابنتها ، وعند شراء الحاجات من السوق كانت ميياكو تشعر بشيء من الفضول يدفعها إلى جعل ساشيكو تعترف أمامها ، لكي تتوصل إلى معرفة الى أي مدى كانت تلك السواقي الصغيرة قادرة على تكبير أنهار مدخرات تاتسو . ولما كانت تاتسو هذه لا تمنح ابنتها الشابة مصروفاً خاصاً لجيبها فمن المستبعد أيضاً أن تكون قد أطلعتها على دفتر إيداعها . قالت ميياكو لكي تبعث الثقة في نفسها ، إن هذا لا يمكن أن يستمر إلى أبعد من ذلك ، لكنها لم تتوصل إلى وسيلة تتخلص بها من عدم الاكتراث إزاء عشق الخادمة العارم للسواقي الشهيرة وطمعها الذي يشبه طمع النملة ، وعلى الرغم من كل شيء أيضاً ، تمثل حياة تاتسو ما لا يُعرف من النقاء ، وتمثل حياة ميياكو ما لا يُعرف من المرض ، وبينما كان شباب ميياكو وجمالها يتلاشيان إلى دخان ، كانت حياة تاتسو تمضي من غير نقصان شخصي ، ولو كان قليلاً . كانت تاتسو تسرد الآلام العديدة التي تعرضت لها بعد موت زوجها في الحرب . وكانت ميياكو تسألها مع شيء من الاستمتاع :

- « هل بكيت عليه ؟ » .

- « آه ! نعم . بكيته يوماً بعد يوم . احمرّت عيناي . واحتقنتا لأنني سكبت

منهما كل دموع جسمي . في ذات يوم قذف ساشيكو بملقط الحديد الذي نُحَرِك به النار . انظري إلى عنقها . لا زالت الندبة ترى عليه . إنها أفضل برهان عندي . . . هذه الندبة ! » .

- « أفضل برهان عن أي شيء ؟ » .

- « آه ! عن أي شيء يا آنسة . . . كيف أقول لك ذلك بالكلمات ؟ » .

فقالت مياكو :

- « هل ينبغي أن يكون الرجال شنيعين إلى هذا الحد ؟ وهل ينبعي أن نسلم أنفسنا إلى واحد منهم مثلك ؟ » .

يظن المرء ، حين يسمعها ، أنها اكتشفت العالم .

- « نعم ! ومع ذلك يمكن أن نرى هذا الأمر بشكل آخر . في ذلك الزمان كان الوضع . . . كأن زوجي قد سحرني . كان يستولي على كياني كله . لم أكن أرى أحداً سواه . . . ثم انقطع ذلك السحر كله ، وسار كل شيء على ما يرام من جديد . . . » .

حين كانت مياكو تستمع إلى عبارات تاتسو ، كانت ترى فيها نفسها ، يوم كانت فتاة صغيرة وانتزعت الحرب حبيبها الأول منها .

لعل صباها ، المجرد من كل الهموم المادية ، هو الذي منحها عدم الاكتراث بالمال . وفي إطار حياتها الحالية يمثل مبلغ مائتي ألف (ين) ثروة ضخمة . ولكن ما ضاع قد ضاع ، كما كانت تقول بإصرار . إن ما فقدته أسرتها ، في خلال الحرب كلها ، لا يمكن أن يوازن بما فقدته الآن . ومع ذلك ، لم تكن مياكو ترى أي وسيلة للعثور على هذا المبلغ مرة ثانية . لقد أنجزت عملية سحب المبلغ بخطة محكمة . وشعرت بأنها الآن عاطلة عن العمل . مائتا ألف (ين) ! قد تتحدث عنها الصحف إذا قرر الشخص ، الذي حصل عليها ، أن يعلن عن العثور عليها . إن اسم مياكو وعنوانها مسجلان في الدفتر الصغير . لذا يمكن أن يحدث أمر واحد من بين اثنين ، إما زيارة يقوم بها ذاك الذي وجد حقيبة اليد . وإما دعوة إلى مركز الشرطة . ظلت مياكو ثلاثة أيام أو أربعة تنقب في الصحف ، لا ريب أن الرجل الذي تعقبها لا يعرف اسمها الآن ، أو مكان سكناها ، هل وقعت فريسة سرقة ؟ حتماً . في الحال العكسية ، إنه سوف يتعقبها بأصرار سواء أخذ الحقيبة أم لم يأخذها . أم أنه لاذى بالفرار أخيراً متأثراً بهول الصدمة ؟

حدث حادث حقيبة اليد بعد قصة « جينزا » بأسبوع تقريباً ، عندما كسبت ميياكو قطعة القماش الأبيض من أجل تنورتها الصيفية . وفي خلال هذا الاسبوع كله لم يطأ العجوز آريتا عتبة بيتها ، لكنه ما لبث أن برز بعد يومين من ضياع الحقيبة .

- « آه ! سيد آريتا . يا لها من مفاجأة سعيدة ! » .

بهذه الجملة عبرت تاتسو عن دهشتها ، وهي تجري مسرعة أمامه ، وأخذت منه مظلته ، ثم أضافت هامسة :

- « هل جئت ماشياً ؟ » .

- « نعم . لقد تبدل الطقس في الطريق . هل جاء فصل الأمطار يا ترى ؟ » .

- « سوف تزعجك آلامك » .

ثم صرخت :

- « ساشيكو ! ساشيكو ! » .

وأضافت فوراً :

- « آه ! هذا صحيح . إنها في الحمام ! » .

أسرعت عارية القدمين ، على رخام الدهليز البارد كالجليد ، لكي تساعد الشيخ في خلع حذائه .

- « اذا كان الحمام جاهزاً فإنني سأدخل لأتدفأ فيه . عندما يكون الطقس رطباً إلى هذا الحد ، وتكون درجة الحرارة غير منخفضة الى مستواها المناسب للفصل . . . » .

- « نعم . . . هذا سيء . أليس كذلك ؟ » .

وكأن تاتسو أتمت جملته وقد عقدت حاجبيها الضعيفين فوق عينيها الدقيقتين ، وكأنها فهمت قصده .

- « لم نكن نتوقع قدومك فعلاً ! وقد سمحت ساشيكو لنفسها أن تستحم قبلك . ما العمل ؟ » .

- « ليس الأمر جسيماً » .

ـ « ساشيكو ! ساشيكو ! اخرجي فوراً ! أزيلي الرغوة من على سطح الماء . أليس كذلك ؟ وجففي البلاط جيداً » .

ووثبت مندفعة لكي تضع مغلاة على النار وتوصل جهاز تدفئة الحمام .

وعندما رجعت كان العجوز آريتا ، الذي ظل مرتدياً ممطره ، قد مدّ ساقيه وطفق يدلكهما .

ـ « هل تريد أن تدلكك ساشيكو عندما تستحم ؟ » .
ـ « ومياكو ؟ أين هي ؟ » .
ـ « قالت السيدة إنها ستذهب إلى دار السينما لتشاهد الأخبار المصورة . هناك سينما لا تعرض إلا هذا . وينبغي أن تكون هنا بين دقيقة وأخرى » .
ـ « استدعي لي المدلكة. هل تريدين ؟ » .
ـ « حسناً . نفسها التي نستدعيها كل مرة ؟ » .

انتصبت واقفة ، وذهبت تبحث عن ثيابه الداخلية . ثم قالت :
ـ « أظن أنك ستغيّر ثيابك في الحمام ؟ » . وصرخت :
ـ « ساشيكو ! » .
ثم أضافت :
ـ « حسناً ، سوف أذهب لاستدعاء المدلكة » .
ـ « هل أنهت ابنتك حمامها ؟ » .
ـ « بكل تأكيد . نعم ساشيكو ! » .

عندما رجعت مياكو ، بعد ما يقرب من ساعة ، كان العجوز آريتا يستمتع بالتدليك مضطجعاً على سرير الطابق الأول . قال بصوت خفيض :
ـ « إنني مريض » .
ثم أضاف :
ـ « من ذا الذي يخرج في مثل هذا المطر القذر ؟ خذي حماماً ، أنت أيضاً ، فسوف يفيدك » .
ـ « نعم ،هذا صحيح » .

ثم جلست مجهدة على الأرض . وأسندت ظهرها على الخزانة كيفما اتفق .

لقد اكتسى وجه الشيخ ، في ثمانية أيام ، مظهراً كئيباً مرهقاً . وظهرت بعض البقع السود على خديه ويديه .

- « خرجت لرؤية الجريدة الناطقة . إنها تروق لي . وفي الطريق غيّرت رأيي . رغبت في غسل شعري . ولما كان محل الحلاقة مقفلاً . . . » .

ألقت نظرة على شعر الشيخ الذي اغتسل ولا يزال ندياً كما يبدو :
- « إنك تتطيّبُ بسائل قوي الرائحة ! » .
- « تتعطّر ساشيكو كثيراً . أليس كذلك ؟ » .
- « إن رائحتها قوية كما يبدو » .
- « هوم ! » .

نزلت ميياكو ثانية لتستحم أيضاً ولتغسل شعرها بالصابون السائل (الشامبو) نادت ساشيكو لكي تجفف لها شعرها بمنشفة .

- « إن قدميك دقيقتان يا ساشيكو ! » .

كانت ميياكو قد أسندت مرفقيها على ركبتيها ومدّت ذراعها لكي تتلمس أقرب قدم إلى ناظرها . انتقل اضطراب الفتاة الشابة إلى كتف ميياكو العاري . لم تكن ساشيكو تميز بين ما لها وما لغيرها ، وربما أخذت هذه العادة من أمها . لكن ما كانت تستولي عليه من أغراض ميياكو كان يقتصر على بعض أنابيب أحمر الشفاه القديمة أو على مشط مكسّر الاسنان ، مطروح في سلة ، أو على بعض دبابيس الشعر المبعثرة . كانت ميياكو تفهم أن هذه الاختلاسات الصغيرة لم يكن سببها إلا الاعجاب والرغبة اللذين يوحي بهما جمالها الخاص للفتاة ساشيكو .

خرجت من الحمام فارتدت سترة صغيرة قصيرة فوق ثوب خفيف مزخرف ببعض الزهور الدقيقة الشوكية على لون أبيض ، بعد ذلك ، أخذت تفرك قدمي الشيخ فركاً خفيفاً متسائلة ، في أعماق نفسها ، عما اذا كانت هذه العملية قد تصبح خبزها اليومي في حال ذهابها للعيش معه في بيته !

- « هل هي موهوبة . . . هذه المدلكة ؟ » .
- « أبداً ! تلك التي تأتيني إلى بيتي أفضل منها بكثير . . . بما لا يقاس . واعية . . . وعارفة لما تعمله » .

ـ « امرأة ؟ » .

ـ « نعم » .

كذلك كان على أوميكو أن تحضر ، في كل يوم ، جلسة التدليك ، عندما خطرت هذه الفكرة في ذهن ميياكو استولى عليها التعب وانسحبت كل حيوية من يدها . تناول العجوز آريتا أحد أصابعها وضغط على عروقه ، في القاعدة تماماً . مال الاصبع إلى الخلف .

ـ « أتخيل أن أصابع رفيعة مثل أصابعي لا تساوي شيئاً » .

ـ « لا أعرف . نعم . أعرف أنني أحبها لأنها مترعة بالشباب ، مترعة بالرقة والحنان » .

سرت رعشة في العمود الفقري لميياكو كله ، أبعدت اصبعها من جديد لكن الرجل العجوز أعاده ثانية .

ـ « ألا تفضل يدين أقصر ؟ يدي ساشيكو ؟ لماذا لا تمنحها فرصة تدريب نفسها قليلاً ؟ » .

لاذ الرجل العجوز بالصمت ، ذكرت ميياكو فجأة فقرة من « الشيطان في الجسد » التي ألفها راديغيه . كانت قد رأت الفيلم قبلاً ثم قرأت الكتاب . « لا أريد أن أكون سبب شقاء حياتك . أبكي لأنني كبيرة السن اذا قورنت بك ! » (هكذا كانت تقول مارتا) . لقد كانت كلمة الحب هذه صبيانية الأسلوب . ومهما تكن العواطف التي أبديها بعد ذلك ، فلن يكون من الممكن أبداً الشعور بذلك الانفعال المحبب ، الذي ينجم عن رؤ ية فتاة في التاسعة عشرة من العمر ، وهي تبكي ، لأنها تجد نفسها قد كبرت في السن .

كان عمر حبيب مارتا ست عشرة سنة . ومارتا نفسها ، بأعوامها التسعة عشر ، كانت أصغر من ميياكو بكثير ، لأن عمر ميياكو هو خمسة وعشرون عاماً . لقد تأثرت ميياكو كثيراً ، بهذه الفقرة ، لأن شبابها كان يفرّ منها ، كما تفرّ حبات الرمل بين أصابع رجل عجوز .

لقد صرح العجوز آريتا ، في كل مناسبة ، أن عمرها لا يظهر عليها ، ليس فقط ، في نظره هو الشيخ العجوز ، في الواقع ، بل في عيني أي انسان آخر ، فهي تبدو أقل سناً . مع ذلك ، لقد استطاعت أن تحلل هذا الشعور بالحب

والعبادة ، الذي ينسبه العجوز إلى شباب ميياكو ، والذي يتحدث عنه بلا انقطاع . كان آريتا يتوجس خيفة من قدوم تلك اللحظة ، التي تفقد فيها قسمات المرأة الشابة عذوبتها شيئاً فشيئاً ، ويضيع فيها صفاء خطوط جسمها . يبدو من الفظاظة وعدم اللياقة أن نتخيل رجلاً، في مثل هذا السن، قد ناهز السبعين من عمره ، يطلب لعشيقته ، التي تبلغ الخامسة والعشرين ، مزيداً من الشباب ، وفضلاً عن ذلك أيضاً ، كان يحدث أن تنسى ميياكو لوم الرجل العجوز ، ثم تعود إلى فعل ذلك ، تاركة لوساوسه أمر تذكيرها بشبابها الخاص . وكان آريتا ، في الوقت نفسه الذي كان يتحسر فيه على ربيع ميياكو ، يبحث في داخلها بحثاً محموماً عن الأم التي فقدها . وهنا أيضاً ، على الرغم من أنها لم تكن تعير أي الفات إلى مثل هذه المتطلبات ، كان يصدف أن تقع ميياكو فريسة مشهد الأمومة المشوّه .

مالت إلى الأمام قليلاً ، ممدودة الذراعين ، وأسندت إبهاميها على وركي الرجل العجوز الذي كان نائماً على بطنه . سألها :

- « ألا تستطيعين أن تقفي فوقي ؟ » .

ثم أضاف :

- « ولكن احترسي فقط حين تضعين قدميك ! » .

- « لا . إنني أفضل عدم القيام بذلك . . . اطلب من ساشيكو . هي أصغر مني جسماً . كما أن قدميها الدقيقتين أكثر ثباتاً » .

« إنها طفلة . وسوف أزعجها » .

- « وأنا أيضاً يزعجني ذلك » .

في الوقت ذاته كانت تفكر أن ساشيكو أقل بعامين من مارتا ، وأكبر بعام واحد من حبيب هذه البطلة ، ثم ماذا ؟

- « ذلك أنك خسرت الرهان وأنك لم ترجع بسرعة ؟ » .

- « آه ! نعم . الرهان » .

وأدار رأسه كما تدير السلحفاة رأسها .

- « لا . . . ولكن بسبب هذا الألم العصبي » .

- « ولأن مدلكة حيك أمهر . أليس كذلك ؟ » .

- « ياه ! . . . ربما ، نعم . . . وأيضاً ، ما دمت قد خسرت لهذا السبب لم تسمحي لي بأن أنام وأضع رأسي على ذراعك . إذن . . . » .
- « حسناً . حسناً ، سوف تحصل على هذا الاذن » .

كانت ميياكو تعرف تمام المعرفة أن المتع الحقيقية ، في سن آريتا ، هي هذه الأمور الدقيقة : الاستسلام إلى تدليك الخاصرة والساقين ، دسّ وجهه بين نهدي امرأة شابة . وفي وعي ذلك الشيخ ، الذي كان يمارس حياة نشيطة في الواقع ، أصبحت هذه اللحظات التي كان يقضيها في بيت ميياكو ، لحظات « حرية العبد » . لكن ميياكو لم تكن تستطيع الامتناع عن التفكير ، عندما يقول ذلك ، إنها كانت ساعاتها الخاصة بالعبودية ، ساعاتها هي ذاتها .

قال الرجل العجوز بعد أن استدار على جنبه :

- « حسناً الآن . سوف يلفحك البرد وأنت في هذا الثوب الفضفاض الرقيق » .

وكما كانت تتوقع ميياكو ، إن مجرد الاشارة لذراعها وحق استخدامها وسادة جعله يشفى . أما هي فقد شعرت بالتعب من التدليك .

- « بهذه المناسبة ، بماذا تشعرين عندما يتبعك أحد هؤلاء الرجال ذوي القبعات الزرق ؟ » .

- إنني أحب ذلك . أما لون القبعة فليس له أي أهمية » كان جوابها هذا مرحاً مقصوداً .

- « هذا اذا كان يكتفون بمطاردتك . لا فأنا أريد أن أصدق ذلك فقط . أما اذا فعلوا شيئاً آخر . . . » .

- « أول أمس . . . شاب غريب . . . تعقبني حتى الصيدلية ، وقد فقدت حقيبتي . . . » .
- « هيا ، هيا . . . ! رجلان في أسبوع واحد ؟ » .

وعلى الرغم من أن ميياكو قد جعلت من ذراعها وسادة فقد حكّت رأسها . أما آريتا ، فقد كان على نقيض تاتسو ، ولم يبدُ عليه أي شك ، إذ ربما فقدت الحقيبة فعلاً في أثناء قيامها بالنزهة . ولعله فوجىء حين علم أن شخصاً ثانياً قد

تعقبها . وهنا شرع يطرح بعض الأسئلة على نفسه ، لقد نقلت دهشة الرجل العجوز ، إلى ميياكو ، الشعور بالغبطة الخفيفة . فشعرت بنوع من الراحة ، أما هو ، فقد دفن رأسه في صدر المرأة الشابة ، وضغط النهدين الناعمين على صدغيه :

- « هل هذا لي ؟ » .
- « نعم . . . لك » .

لم تأت ميياكو بأي حركة ، بعد هذه الكلمات الصبيانية ، نظرت إلى الرأس الشائب ، وشرعت في البكاء ، أطفأت النور . وفي أعماق الظلام انبجس وجه ذلك الرجل الذي اختطف حقيبة اليد . وهو أيضاً ، كما بدا لها في لحظة المطاردة ، كان يوشك أن يبكي . « آ . . . آ . . . آه ! » . كأن ذلك الرجل لم يستطع منع هذه الزفرة . كانت خفيفة لا تكاد تدرك . ومع ذلك ، لا تشك ميياكو برهة واحدة في أنها سمعتها . وفي اللحظة التي توقف فيها فجأة ، والتفت نحوها ، كان ثمة شيء ، في لون شعر الرجل ، وأذنيه ، وعنقه ، يضغط على قلبها. « آ . . . آ . . . آه ! » . لقد عاشت دون أن ترى ذلك الرجل الذي كان على وشك الاغماء . نعم ، منذ اللحظة التي سمعت فيها تلك الصرخة المكبوتة ، والتي استدارت فيها نحو ذلك الوجه المضطرب ، كان يبدو على الرجل أنه مصر على ملاحقتها . كان حزيناً كالضائع في عالم بعيد منعزل . لم تكن ميياكو على استعداد للّحاق به في هذا الدرب ، لكنها كانت تشعر أن ظلاً هرب من هذا الانسان وتسلّل في أعماقها .

لم تلق ميياكو إلا نظرة خاطفة فوق الكتف ، في أول لحظة ، ثم ما لبثت بالتالي أن تحاشت الالتفات ، لقد نسيت قسمات هذا الرجل . والآن أيضاً ، في أعماق الظلمات ، لم تكن ترى منها إلا خطوطاً غامضة شوهتها الجهود التي كان يبذلها لكي لا يبكي .

تمتم العجوز آريتا بعد لحظة :

- « هذا شيء لا يمكن تفسيره ! » .

كانت دموع ميياكو الغزيرة تمنعها من الإجابة .

- « هل أنت واثقة أنك لست ساحرة خطرة ؟ كل هؤلاء الرجال الذين

يتعلقون بك . . . ألا تخافين أنت من نفسك ؟ أنا أعتقد أن فيك روحاً شريرة . . . » .

ـ « أنت ثقيل جداً »..

كانت عضلات صدرها تتوتر . ذكرت ذلك الوقت الذي بدأ فيه نهداها يسببان لها بعض الوجع ، وكانت الطبيعة آنذاك غارقة في الأزهار ، خيل إليها أنها ترى ، من جديد ، في عريها الطاهر ، هذا الجسم الذي هو جسمه . تستطيع ميياكو الآن أن تظهر أصغر من سنها . وجسمها نفسه لا يتوانى عن إبراز الأجزاء المملوءة فيها بصفتها امرأة .

ـ « وخبيث جداً أيضاً ! أعتقد أن السبب هو مرضك » .

كانت تقول أي شيء . وبينما كان جسمها يتغير كانت تتغير أيضاً تلك الفتاة الصافية التي أصبحت امرأة مُرَّةً الآن .

ـ « ولماذا خبيث ؟ » .

لقد أخذ مِلاحظتها مأخذ الجد .

ـ « هل تجدين ذلك مسلياً . . . أن تجعلي الرجال يطاردونك ؟ » .

ـ « ولكن لا أبداً » .

ـ « ألم تقولي ، قبل برهة ، أن هذا يمتعك ؟ لا شك أن هذا راجع إلى رغبتك في الانتقام من ترددك على شيخ عجوز مثلي » .

ـ « ولكن . . . أنتقم من أي شيء ؟ » .

ـ « آه ! كيف أعرف ذلك ؟ من حظك . . . من حياتك . . . » .

ـ « هذا يمتعني ، هذا يمتعني . . . ليس الأمر سهلاً » .

ـ « لا ، في الحقيقة ، ليس سهلاً أن ننتقم من الحياة » .

ـ « وأنت . . . عندما تختلف إلى امرأة شابة . . . ألا تفعل ذلك للسبب نفسه ؟ » .

ـ « باه . . . ! » .

فترة صمت . ثم استأنف :

ـ « ليست المسألة مسألة انتقام . أو إن شئت استعمال هذه الكلمة ، فأنا الشخص الذي يراد منه الانتقام : موضوع هذا الانتقام » .

لم تكن ميياكو تعيره إلا انتباهاً ظاهرياً . ولما كانت قد أعلنت عن ضياع محفظتها فإنها قد تتمكن من الاعتراف بأن هذه المحفظة كانت تحتوي مبلغاً جسيماً ، وقد يعوضها إيّاها العجوز آريتا . ولكن . . . مائتا ألف (ين) مع ذلك ؟ أي رقم يجب أن تذكر له ؟ من المؤكد أن المال كان يأتيها من الشيخ . وهو لم يكن من توفيرها إلا قليلاً . لها الحق في أن تتصرف به على هواها . لو أنها قالت له إنها تريد أن تساعد أخاها الأصغر « كيزوكي » وترسله إلى الجامعة ، فسوف يكون من السهل عليها ، بلا ريب ، أن تجعل الرجل العجوز يتنازل عن المال .

حين كانا صغيرين كان يقال عنهما إنهما قد غلطا في الجنس ، فهو كان بنتاً . وهي صبي . لكنها قبلت أن يرعاها العجوز آريتا ، وأصبحت خاملة جبانة . وحين رضيت بذلك ، كانت قد تنازلت عن كل شيء ، بدون أدنى ريب ، وعن كل أمل . « احسب مفاتن عشيقتك . أما مع زوجتك فلن تحتاج إلى ذلك الحساب » . حين قرأت ميياكو هذه الحكمة القديمة شعرت بأن ستاراً من الحزن واليأس يجثم فوقها . حتى كبرياء حسنها فقدته ، وربما كانت هي ، هـذه الكبرياء ، تعود فتولد من جديد ، عندما تترك رجلاً يطاردها . وفي الوقت ذاته ، أدركت أن المظاهر وحدها لا تجذب الرجل ، من يعرف إن لم يكن العجوز آريتا على حق ، عندما زعم أن هالة شريرة تنطلق من المرأة الشابة .

أضاف العجوز :

ـ « إنك تقومين بمجازفة عظيمة ، على كل حال . تجعلين أول قادم يتبعك على هذا النحو ! ألا تعتقدين أن هذا العمل هو إغراء الشيطان ؟ » .

فأعلنت عن موافقتها طائعة :

ـ « نعم . ربما ، ربما كان في قلب الجنس البشري جنس من الأبالسة ، سوف يصير بعيداً عن الانسانية تماماً . ربما وجد في عالمنا هذا عالم آخر تقطنه الأرواح الشريرة » .

ـ « وأنت تشعرين بكل هذه الأشياء ؟ إنك تبعثين الرعب في نفسي . . . سوف يصيبك شر . أخشى ألا تموتي ميتة طبيعية . . . » .

ـ « أتساءل عمّا اذا كان إخوتي وأخواتي قد لاقوا مصيري نفسه . حتى أخي الصغير الذي كان حلواً كأنه بنت . لقد كتب وصيته » .

« ولكن لماذا ؟ » .

ـ « حماقات . لقد فعل ذلك في الربيع الماضي . . . لقد كان يعتقد أنه لا يستطيع الالتحاق بالجامعة التي التحق بها أفضل أصدقائه « ميزونو » . هذا الصديق ينتمي إلى أسرة حسنة . وهو ذكي جداً أيضاً . وعد أن يساعد أخي في فحص القبول . بل إنه كان يريد أيضاً أن يحرر له أوراقه . وإن أخي كيزوكي ليس من النوع الذي لا يعمل . لكنه من النوع الذي يخاف . كان قانعاً تماماً أنه سوف يقع مغمى عليه عندما يدخل إلى قاعة الامتحان . وهذا ما حدث له فعلاً . أضف إلى ذلك أنه كان يخشى عدم دخوله إلى الجامعة حتى حينما نجح في فحص القبول » .

ـ « هذه هي أول مرة تتحدثين فيها معي عن هذا الموضوع » .

ـ « ولماذا أتحدث معك عنه ؟ فلن يفيد ذلك شيئاً » .

استراحت ميياكو قليلاً ثم تابعت :

ـ « أما ميزونو ، من جانبه ، فلم يقع في أي مشكلة بسبب ذكائه . ولقد اضطرت أمي إلى الدفع لكي يتمكن أخي من الدخول إلى الجامعة . وعندما قبل فيها دعوته مع صديقه لتناول العشاء في حي « أوينو » احتفالاً بتلك المناسبة . ثم ذهبنا إلى حديقة الحيوان لمشاهدة أشجار الكرز المزهرة . أريد أن أقول أخي ، وميزونو ، وصديقة ميزونو الصغيرة . . . » .

ـ « أوه ! » .

ـ « أخيراً ، صديقته . . . كأن عمرها خمس عشرة سنة . طاردني رجل هناك ، كان مع زوجه وأولاده . لقد تركهم فجأة هناك لكي يجري ورائي ! » .

بدت الدهشة على العجوز آريتا . وقاطعها :

ـ « ولكن كيف تستطيعين أن تتصرفي مثل هذا التصرف ؟ » .

ـ « ماذا تعني بقولك : مثل هذا التصرف ؟ أعتقد أن هيئتي كانت حزينة ، لأن ميزونو وصديقته الصغيرة كانا يثيران الرغبة في كياني . هذا كل شيء . فأنا إنسان » .

ـ « نعم . بكل تأكيد . ولقد كنت تجدين متعة في ذلك ! » .

ـ « لا ، فأنت خبيث . لم أجد متعة في ذلك ، عندما فقدت حقيبتي مثلاً كنت جدّ خائفة . ولقد استعنت بخوفي لأضرب ذلك المخلوق . أو أنني رميتها

إليه ، أنا لا أعرف . لم أكن في حال اعتيادية . كانت الحقيبة تضم مبلغاً عظيماً ، عظيماً جداً عندي على كل حال . كانت أمي قد اضطرت لاقتراضه ، من أحد أصدقاء أبي ، عندما لزم أن ندخل كيزوكي في الجامعة ، وهي لا تعرف كيف ستتمكن من تسديده ، حينئذ أردت تقديم المساعدة لها ، وعند خروجي من المصرف بالضبط ، بعد أن سحبت النقود ، حدث الحادث » .

- « ما مقدار ما كان فيها ؟ » .
- « مائة ألف (ين) » .

تنفست ميياكو الصعداء . لم تصرح إلا بنصف المبلغ دون أن تفكر .
- « حسناً . ليس هذا بالمبلغ الكبير ! وسمحت لذلك الرجل أن يسرقها منك ؟ » .

أعلنت عن موافقتها في الظلام . أحس الرجل العجوز برعشة كتفيها وبضربات قلبها المجنونة .

ومع ذلك ، أرادت ميياكو أن تذكر نصف المبلغ فقط . لقد امتزج الخزي ، الذي كانت تشعر به ، بشعور مبهم بالفزع . كانت يد الشيخ تداعبها بحنان ، كانت ميياكو تعرف أن نصف المبلغ سيعوّض لكن دموعها كانت تسيل بلا انقطاع . ولن يعوضها أحد .

- « هيا . . . لا تبكي . ولكن قولي لنفسك ، مع ذلك ، إن كل هذا كان يمكن أن ينتهي نهاية سيئة ويمكن أن يتكرر بشكل أدهى . تحدثت معي عن أولئك الرجال الذين يطاردونك . . . لكن . . . كل ما تحدثت عنه حول هذا الموضوع ليس إلا نسيجاً من المتناقضات . ألا تعتقدين بذلك ؟ » .

لقد طرح سؤاله الأخير بنبرة عتاب رقيق .

نام ورأسه على ذراع ميياكو . أما ميياكو فلم يغمض لها جفن . كان مطر حزيران الناعم يهطل مدراراً . كان من العسير جداً تقدير عمر العجوز آريتا بالاعتماد على صوت تنفسه وحده عندما يكون نائماً . سحبت ميياكو ذراعها . لكنها اضطرت ، من أجل ذلك ، أن ترفع رأس الرجل العجوز بخفة بيدها الأخرى الطليقة . الا أنه لم يستيقظ . كان مشهد هذا العجوز المعادي للمرأة

والنائم بهدوء إلى جانبها ، والمستسلم كلياً لها ، ينقش هذه الكلمة « التناقض » في ذاكرتها ، تلك الكلمة التي استخدمها هو ، والتي جعلتها تحس بالخزي والعار . كانت ميياكو تعرف أن الرجل العجوز عدو للمرأة دون أن يعلمها أحد ذلك . فلقد انتحرت زوجه / بعد ثورة غيرة/ حين كان عمره أربعين عاماً تقريباً . وسواء رسخت في نفسه عاطفة الحقد أم لم ترسخ ، منذ ذلك العهد ، فقد كان يكفي أن تبدي امرأة أي أثر للغيرة حتى يضع قدميه في عنقه ويلوذ بالفرار ، ولم تكن ميياكو تنوي أبداً الاستسلام لأي نوع من أنواع الغيرة إزاء العجوز آريتا ، ولعل سبب ذلك حبها لنفسها ويأسها في آن واحد ، بيد أنها كانت امرأة قبل أي شيء ، امرأة قابلة ، على هذا الأساس ، لأن تستسلم لنزوات طارئة . كان وجه الشيخ آنذاك يعكس فزعاً مريعاً إلى درجة تجعل كل غيرة تتجمد ، ولا تترك لميياكو إلا الحزن والاشمئزاز . مع ذلك ، لا يمكن أن تنسب عداوة الرجل العجوز فقط إلى خوفه من الغيرة وحدها ، بل يمكن أن يكون لعمره أثر في ذلك أيضاً . كانت ميياكو ، في بعض الأحيان ، تتساءل : كيف يمكن أن تبدي امرأة غيرتها إزاء رجل معاد للنساء بضراوة ، ثم ما تلبث أن تبدل من سير مشاعرها . لكنها إذا كانت تفكر بفارق السن بينها وبين آريتا فانها كانت تجد من الغرابة أيضاً أن تتساءل عمّا إذا كان هذا الانسان مع النساء أو ضدهن .

ذكرت ميياكو ، مع قليل من الحسد ، صديق أخيها ومحبوبته الصغيرة ، كانت تعرف ، من قبل ، وجود الفتاة « ماشييه » عن طريق كيزوكي ، إلا أنها لم ترها ، للمرة الأولى ، إلا في ذلك اليوم ، عندما احتفلوا بتسجيل كيزوكي في الجامعة ، وكان كيزوكي قد صرح لها قبل ذلك بقليل :

- « لم أصادف فتاة أجمل منها وأنقى » .

- « لكن فتاة تتخذ عاشقاً وهي في الخامسة عشرة تكون مبكرة قليلاً مع ذلك . إن هذا يعني أنها في الصف السادس في واقع الأمر . لكن بنات اليوم محظوظات . في الخامسة عشرة ، ولها صديق صغير ! » .

لقد أضافت الملاحظة الأخيرة وكأنها كانت تريد أن تُلَطِّف الأولى .

- « ولكن قل لي يا « كي - شان » هل تستطيع أنت أن تتعرف على النقاء الحقيقي عند البنت ؟ » .

ثم أضافت :
ـ « لن يرى ذلك بسهولة . ألا تظن ذلك ؟ » .
ـ « ما هو النقاء عند المرأة ؟ اشرحي لي ذلك قليلاً » .
ـ « با ! بالكلمات . . . » .
ـ « أنت التي أثرت هذه الفكرة عن ماشييه كما تعلمين » .
ـ « سوف تفهم ذلك عندما تقابلها » .
ـ « أنت تنسين أن النساء خبيثات . وإنهن لا يقدمن لنا البرهان الحسن عن نيتك الطيبة ! » .

هل صدمت هذه الآراء كيزوكي ؟ كان هو الذي احمرّ لونه ، وليس ميونو ، وهو الذي فقد رباطة الجأش حين تعرفت ميياكو على ماشييه . ولما كانت لا تستطيع أن تدعو صديقي أخيها ، في بيتها الخاص ، فقد حددت لهما مكان اللقاء في بيت أمهما .

ـ « كي ـ شان . . . أنت على حق في موضوع ماشييه » .

كانت منهمكة في مساعدته ، في غرفة داخلية ، على ارتداء بزته الجامعية الجديدة الزاهية .
ـ « نعم ؟ حسناً . لقد نسيت أن ألبس الجوارب أولاً » .

جلس على الأرض . أَقْعَتْ ميياكو أمامه . فانسحبت تنورتها الزرقاء البحرية قليلاً .
ـ « لا تنسي أن تهنئي ميزونو لقبوله أيضاً . لقد طلبت اليه أن يحضر مع ماشييه . . . » .

فأبدت موافقتها :
ـ « بكل تأكيد » .

كان هذا الأخ الصغير الخجول ، الذي ارتابت بأنه قد تعلّق سراً بماشييه ، أصبح يثيرها .

ـ « إن والـدي ميـزونو من النوعالذي لا يعارض هذه العلاقة . . . ربما كانا قد كتبا إلى أسرة الفتاة . ولعلّ والدي ماشييه قد وجدا هذه الرسالة فظة فيما

يبدو . فاتخذا احتياطاتهما كاملة . حتى اليوم لم تتمكن الفتاة من المجيء إلا خفية » .

كان هذا الشرح الذي قدمه أخوها مرفقاً بكثير من الحرارة .

كانت ماشييه ترتدي ثياب البحرية العزيزة على نفوس الطالبات . وكانت قد اشترت طاقة ورد فائحة الأريج احتفالاً بتسجيل كيزوكي في الجامعة ، فوضعت في آنية من البلور على مكتبه .

ثم اتفقوا جميعاً ألا يخرجوا إلا بعد حلول الظلام ، من أجل إلقاء نظرة على أشجار الكرز المزهرة ، في حديقة أوينو ، لذا فقد دعتهم ميياكو إلى مطعم صيني ، غير بعيد عن تلك الحديقة .

كانت الحديقة ذاتها مليئة بجماهير غفيرة الى درجة تحول بين الانسان وبين التقدم في سيره . كانت أشجار الكرز مريضة . وكانت الافنان المزهرة شديدة النحول . وفضلاً عن ذلك كان النور الاصطناعي يرفع من قيمة الوردة البتلة . تحدثت ماشييه قليلاً . فهل كان من طبيعتها الصمت أم أن وجود ميياكو بعث لديها الاضطراب ؟ وقد تحدثت كيف كانت ترى هذه الأزهار ذاتها التي تنتشر انتشاراً وفيراً كأنها كتل من زهور الأزالية الصحراوية ، في حديقة أهلها ، عندما يطلع الصباح ، والى أي درجة كانت تجد ذلك جميلاً . كما تحدثت أيضاً عن الشمس التي كانت تسطع بين أشجار الكرز المزهرة على حافة الحفرة ، عندما كانت تذهب لزيارة كيزوكي ، وكأنها صفار بيضة .

كانوا يهبطون الدرجات الحجرية ، بالقرب من هيكل « كييوميزو » ، حيث يندر وجود المارة هناك ، وحيث لا تكاد تصل أنوار المصابيح ، حين خاطبت ميياكو ماشييه قائلة :

ـ « حين كان عمري ثلاث سنوات أو أربع سنوات . . كنا نقطع الورق ونصنع منه طيور الكركي ، أنا ووالدتي ، وكنا نأتي إلى هذا المكان ، لنعلقها على جدران الهيكل . وكان ذلك نذراً منا لكي يشفى أبي . . . » .

لم تنبس ماشييه ببنت شفة . لكنها توقفت ، كما توقفت ميياكو ، في وسط السلم تقريباً، والتفتتا لكي تلقيا نظرة على الهيكل، وفي الأسفل، على الطريق التي تؤدي الى المتحف، كان الازدحام يعرقل المرور، فاطروا الى الدخول الى

حديقة الحيوان . وعلى ضوء المصابيح التي تمتد على طول الحديقة ، تعرفوا على الطريق المبلط المؤدي إلى معبد « توشو » ومضوا فيه . ومن كل جانب ، كانت الظلال التي تسقطها الفوانيس الحجرية ، وفوق هذه الظلال كانت ساقية من أشجار الكرز المزهرة. وخلف الفوانيس، فوق الحشائش، كانت أرهاط من البشر قد قدمت للتمتع بالأزهار ، وقد شكلت حلقات وحلقات . وثمة شموع موقدة في الوسط كان يخيل لناظرها أنها تتزعم تلك الحفلة الوثنية التي تراق فيها الخمور .

وعندما تقدم منهم رجل مخمور مترنحاً وقفت ميياكو أمام ماشييه لحمايتها ، ثم اقترب كيزوكي ، بعد أن كان على مسافة منهما ، فاندس بينهما ، بينما وقف السكير موقف الدفاع . وحين حاوروه لكي يطبقوا عليه ، تشبثت ميياكو بكتف أخيها ، معجبة به ومفكرة أنها لم تكن تعرفه شجاعاً إلى هذه الدرجة .

كانت أنوار المصابيح تزيد ماشييه جمالاً كانت رصينة جداً بفمها الصغير المغلق ، وباللون الذي اكتسبه خداها ، بفعل تلك الإنارة ، مما يوحي بمنظر عذراء تؤدي صلاتها .

ـ « ميياكو ! » .

اختبأت الفتاة فجأة خلف ميياكو بل إنها كادت أن تلتصق بها .

ـ « حسناً ؟ ماذا هناك ؟ » .

ـ « صديقة من صديقاتي في الصف ، مع أبيها . . . إنها تسكن في جوارنا تماماً » .

ـ « ولهذا السبب تختبئين ؟ » .

في الوقت ذاته استدارت وتناولت يد ماشييه . ثم عجزت عن هجرها فتابعت سيرها على هذا النحو . كانت تتصور أن السحر سيستولي عليها عندما تلمسها ، كانت يدها يد امرأة . والاحساس بها لذيذ . كانت ميياكو تحب أن تحتفظ بتلك اليد في يدها ، عذبة جداً وناعمة جداً . كان جمال تلك الفتاة يملأ قلبها . اكتفت بالقول :

ـ « تبدين سعيدة يا ماشييه » .

فهزت الفتاة رأسها .

ـ « كيف ؟ ألست سعيدة ؟ » .

أشاحت عنها ميياكو وقد أصابتها الدهشة لقد كانت عينا الفتاة تلتمعان في ضوء المصابيح .

ـ « إنك تملكين أسباباً تجعلك بعيدة عن السعادة أيضاً ؟ » .

لم تردّ الفتاة بل سحبت يدها . كم سنة مضت ، منذ تلك الحادثة يوم وجدت ميياكو نفسها تسير ، على هذا النحو ، ويدها في يد فتاة أخرى ؟ !

أما ميزونو ، فقد رأته ميياكو ، في معظم الأوقات ، لكن عينيها ظلتا متعلقتين بماشييه في ذلك المساء . كان التمزق ، الذي تعاني منه في النظر إلى تلك الفتاة ، يخلق لديها الرغبة في الذهاب بعيداً ، بعيداً إلى أقصى حد ممكن . هل صادفتها في الشارع ؟ لا ريب أنها التفتت نحو ماشييه وأمعنت فيها النظر طويلاً . هل كانت هذه العاطفة هي نفسها ، التي بلغت ذروتها ، والتي كانت تربط الرجال بخطا ميياكو ؟

استرعى انتباه ميياكو ضجيج آنية فخارية ، في المطبخ ، كانت قد سقطت أو أوقعها أحدهم . في ذلك المساء أيضاً ، كانت سلالة الفئران تقوم ببعض الحركات . لقد كان هناك أكثر من فأرة . ربما . . . ثلاث أو أربع . تخيلت ميياكو أجسامهم التي بلّلها آنذاك مطر حزيران ، ورفعت يدها إلى شعرها الذي غسل قبل قليل ، والذي لا يزال ندياً بارداً ، وضغطته بصورة خفية .

تحرك العجوز آريتا كأن صدره كان يؤلمه . ثم أخذ يتلوى وكأن جسده كان يتلقى صنوفاً من العذاب العنيف المتزايد . ففكرت المرأة الشابة :

ـ « هه . . . ! لقد عاد من جديد ! » .

ابتعدت إلى حافة السرير وقد عقدت حاجبيها . . . لقد كان الشيخ يتحرك غالباً في نومه . وقد أَلِفَتْ ميياكو ذلك . اهتز كتفاه اهتزازاً تشجنياً ، كما يهتز الانسان عندما يتعثر في سيره، ورسم بذراعه اشارة دفع بها الهواء، وضرب عنق المرأة الشابة ضربة قاسية . استمر في الشكوى . كان في وسع ميياكو أن تهزه وتوقظه ، لكنها ظلت جامدة ساكنة صلبة ، وقد أحست بشيء شبيه بالقسوة يتغلغل في أعماقها .

ـ « آه . . . آ . . . آه ! » .

صرخ الشيخ مستغيثاً وقد ظلت يداه تقاتلان الهواء ، باحثاً ، في حلمه ، عن جسد ميياكو ، كان ، في بعض الأحيان ، يتوصل إلى التعلق بها مرة أخرى ، فيهدأ ، من غير أن يستيقظ ، بيد أن صرخاته ، في هذه الليلة ، انتزعتها من سباتها .

- « آ . . . . آ . . . آه ! » .

هزّ رأسه واقترب من ميياكو مرهقاً . مالت المرأة الشابة بجسدها لكي تستقبله بحنان . كان كل هذا طبيعياً . ولم تجد أي غضاضة في أن تقول :
- « كنت تتحرك في نومك . هل رأيت كابوساً ؟ » .

مع ذلك ، سألها الشيخ مضطرباً :
- « هل تكلمت ؟ » .

- « لا ، لا ، لقد تحركت قليلاً . هذا كل شيء » .
- « آه ! حسناً . وأنت . ألم تنامي ؟ » .
- « لا . . . . » .
- « آه . . . ! حسناً . شكراً » .

أخذ ذراع ميياكو ووضعها تحت عنقه :

- « في أيام الأمطار في شهر حزيران تزداد الأمور سوءاً ، لعلك لم تنامي بسبب هذا الفصل ؟ » .

ثم أضاف وكأنه خجل :
- « خفت أن أكون قد أيقظتك من نومك بصرخاتي » .
- « أنت تعرف تمام المعرفة أنني أستيقظ من أجلك حتى لو كنت نائمة » .

كانت الجلبة التي أثارها الرجل العجوز قد بلغت الطابق الأرضي وأيقظت ساشيكو من نومها .
- « ماما ، ماما . . . أنا خائفة ! » .

تعلقت بأمها وهي ترتجف . أمسكت تاتسو بكتفها . وحاولت التملص منها :
- « لماذا خائفة إذن ؟ إنه السيد . والخوف ، كما تعرفين ، هو الـذي

يبديه . . . ولعله لهذا السبب لا يريد أن ينام وحده . . . ولهذا أيضاً يأخذ معه السيدة في السفر ويدللها كثيراً . . . وإلا لما كان بحاجة إلى امرأة وهو في هذا العمر المتقدم . إنه يتألم من الكوابيس . هذا هو كل شيء . . . ولا داعي للخوف ! » .

درب صاعد ، وستة أولاد أو سبعة ، من الصبيان والبنات ، كانوا ماضين في لهوهم . كانوا أصغر من أن يذهبوا إلى المدرسة ، بمعنى الكلمة ، لذلك كانوا عائدين من دار الحضانة بلا ريب . كان هؤلاء وأولئك ، هؤلاء الذين يحملون عِصِيّاً ، وأولئك الذين يتظاهرون فقط بأنهم كانوا يحملون العصي ، يتصنعون السير مستعينين بالعصي ، وقد انحنت قاماتهم ، كانوا يغنون أغنية جماعية في أثناء تقدمهم المترنح :

ـ « بابا . . . ماما . . . لا يستطيعان المشي فيه أبداً ، بابا . . . ماما . . . لا يستطيعان المشي فيه أبداً » .

ولما كانوا لا يعرفون التعب فقد ظلوا يكررون ويعيدون هذه اللازمة نفسها . ربما يرون في ذلك شيئاً مضحكاً لا نفهمه نحن . بيد أن الأمر ، في الواقع ، لا ينحصر في لعبة حقيقية . فالأطفال ينساقون نحو الأعمال الجادة منذ أن يمتطوا خيولهم الخشبية . ثم ما تلبث حركاتهم أن تزيد إفراطاً شيئاً فشيئاً . وفجأة سقطت إحدى البنات الصغيرات من شدة التمايل :

ـ « أوي ! آي ! أوه كم أتألم ! » .

فركت خاصرتها ، كما تفعل الجدة الكبيرة ، ثم انتصبت ، ومن جديد انضمت إلى الجوقة :

ـ « بابا . . . ماما . . . لا يستطيعان المشي فيه أبداً ! » .

من أعلى الشاطىء يصل الانسان إلى هضبة صغيرة تنتشر فوقها أشجار مبعثرة من الصنوبر على أرض معشبة . لم تكن تلك الاشجار سامقة لكن نِسب أغصانها وصورها تذكر بتلك الأشجار التي تشاهد على الحواجز المتحركة القديمة . وكانت ، في ذلك المساء ، كأنها تنبت في سماء الربيع .

كان الأطفال ، في منتصف الطريق ، يتسلقون مترنحنين آملين في الوصول إلى السماء . ليس ثمة ما يخشونه من السيارات التي يندر أن تمرّ ، كما يندر وجود المارة . لذا كانوا لا يجدون غضاضة في الابتعاد عن الطريق . قد يقع المرء أحياناً على مثل هذا المكان في أحياء السكن في طوكيو . وفي ذلك المساء الربيعي حين كانوا هم أيضاً على الشاطىء ، لم تكن هناك سوى فتاة شابة برفقة كلب من جنس « شيبا » . ولكن . . . لا . . . ! لقد كان ، في ذلك المكان أيضاً ، شخص آخر هو : « جيمبي مومويي » ، وكان منهمكاً بمطاردة تلك الفتاة . ولكن هل ظل هذا الانسان شخصاً سليماً ، أصيلاً ، مشغولاً ، مستغرقاً لأنه كان مندفعاً في موضوع المطاردة ؟

كانت الفتاة تصعد تحت أوراق أشجار الجنكة الممتدة على طول الرصيف الوحيد . ومن الجانب الآخر من الطريق ، لم يكن الإسفلت ليتوقف إلا عند جدار كان يحدد ملكية واسعة تمتد من أسفل الساحل حتى أعلاه ، ومن جانب الأشجار كانت ثمة ملكية أخرى واسعة أيضاً ، بني في أعماقها قصر كتلك القصور التي كانت تشيدها ارستقراطية ما قبل الحرب . ووراء الرصيف حفرت حفرة عميقة وأحيطت بجدار من الحجارة : ربما كانت توازي تلك الخنادق التي كانت تحيط بالقصور ، ولكن بشكل مختصر ، وخلف هذه الحفرة ذاتها ، كان ثمة هضبة ، ذات انحدار خفيف ، تحمل على سطحها مجموعة من أشجار الصنوبر ومن الأشجار الصغيرة جداً . لا ريب أن تلك الأشجار كانت تلقى رعاية فائقة في الماضي ، فهي ما زالت تحتفظ بآثار روعتها القديمة . واذا صعدنا الى أشجار الصنوبر ميّزنا جداراً أبيض واطئاً يعلوه عُرْفٌ من القرميد . وعلى حافتي الطريق كانت أشجار الجنكة تنطلق من ارتفاع كبير . وكانت البراعم ، التي ما كادت تتفتح ، قد تركت أطراف الأغصان عارية . كانت الستارة التي شكلتها تلك الأغصان رقيقة جداً تتسرب منها أشعة الشمس الغاربة بصورة غير متساوية وفق ارتفاع الأغصان واتجاهها . فكانت تشكل فوق الفتاة سقفاً من الأشعة الخضراء ذات الرطوبة اللذيذة .

كانت الفتاة ترتدي كنزة من الصوف الأبيض ، وبنطالاً من القطن رمادياً ، حال لونه يبين قفاه المقلوب بطانة زاهية مقسمة إلى مربعات ، وبين البنطال الذي لبسته قصيراً والحذاء القصير كان يبدو بياض الجلد . كان شعر الفتاة ، الذي عقد

بشيء من الإهمال ، يسقط الى الخلف ، كاشفاً عن عنق صاف لا عيب فيه . كان أحد كتفيها يميل إلى الامام منحنياً قليلاً لأن الكلب الذي كان يرافقها كان يجرّ حبله جراً . لقد فتن جيمبي بروعة هذه الفتاة غير المعقولة . إن لون جلدها وحده ، الذي يرى بين طرف البنطال ذي البطانة الزاهية المقسمة إلى مربعات وبين الحذاء السميك الأبيض ، كان يضغط على قلبه إلى درجة جعلته يتمنى الموت لنفسه أو إزالة الفتاة من الوجود . ذكر ياغوي القديمة في قريته التي ولد فيها ، وهيزاكو تاماكي عندما كانت تلميذته ، لكن يخيل إليه الآن أن من المستحيل أبداً إجراء موازنة بينهما وبين هذه الفتاة . كان لياغوي بشرة صافية ، إلا أنها كامدة . وجلد هيزاكو كان يستدفىء بانعكاس عميق ، إلا أن به شيئاً كثيفاً . كما أن هيزاكو لم تكن تملك ، ولن تملك ، تلك الخصال التي تمتاز بها المراهقة ، ولما كانا بعيدين الآن ، ذلك الصبي الذي كان يلعب مع ياغوي ، الاستاذ الذي كان يسعى جاهداً في الحصول على رفقة هيزاكو ، فإن جيمبي الآن يجد نفسه ممزق القلب ، حطاماً إنسانياً ، فريسة لكل رياح الحظ . وعلى الرغم من أن الوقت كان مساء ربيعياً فإن جفونه المرهقة كانت تفيض بالدموع كأنه كان ماضياً في صراع عنيف مع زوابع جليدية ، ولقد كان يلهث عند صعوده المنحدر الذي كان معتدلاً مع ذلك . وكان يشعر بأن ساقيه لا حول لهما ولا قوة كأنهما مثقلتان بالرصاص ، تحولان بينه وبين إدراك الفتاة. لقد كانا موجودين في منتصف المنحدر، فلماذا لا يستطيع أن يسير إلى جانبها على الأقل ؟ فيحدثها عن أي شيء ، كلبها مثلا . الآن أو إلى الأبد ، كما كان يخيل اليه . لكن هذه الفرصة كانت تفلت منه .

حرك ذراعه اليمنى فاتحاً راحتها . كان قد اكتسب هذه العادة ليحث نفسه ، بصوت عال ، عندما يسير . لكنه فعل هذه الحركة ، في هذه المرة أيضاً ، لأنه تذكر تواً إحساسه ، في راحة يده آنذاك ، بجسد فأرة فاترة ، بجثة ذات عينين جاحظتين ، وبشبكة من الدم تتدفق من فمها . في بيت ياغوي ، على شاطىء البحيرة ، التقطت المصيدة اليابانية واحدة في جحر المطبخ . كانت ثمة حشرة في فمها ، وقد ظل واقفاً منتظراً في مكانه ، لا يعرف ماذا يفعل بها ، إلى أن قدمت أم ياغوي فوبخته وصفعته على رأسه . ألقى البهيمة الصغيرة منقاداً طائعاً . وكان ، مع ذلك ، على استعداد لأن يركض ثانية ليلتقطها ، من جديد ، من مكانها الذي همدت فيه . حينذاك حملت ياغوي كلبها بين ذراعيها . وقالت لتهدئه :

ـ « حسناً . . . حسناً . . . إنك شاطر . . . شاطر » ثم أمرت جيمبي :
ـ « جيم ـ شان . . . خلصنا من هذه الفأرة . هل تريد ؟ » .

أصابه الغضب لكنه التقط الحيوان فلاحظ أن نقطة أو اثنتين من الدم قد لطختا الأرضية . كانت الجثة الصغيرة ، التي ما تزال دافئة ، تبعث في نفسه القلق . لقد بقيت عيناها عيني فأرة صغيرة لطيفة على الرغم من أنهما خرجتا من محجريهما .

ـ « هيا . . . ارمها بسرعة ! » .
ـ « ولكن . . . أين ؟ » .
ـ « في أي مكان . . . في البحيرة ! » .

حينذاك ، أسرع راكضاً نحو ضفة البحيرة ، حاملاً الفأرة من ذنبها ، ثم قذفها بكل ما يملك من قوة . وسمع ، في الظلام ، للريح ، سقوطها ، صوت الحزن المريع ، وأطلق ساقيه للريح ، دون أن يلوي على شيء .

فكر تفكيراً عميقاً مشبعاً بالندم : « إنها لا تمثل شيئاً عندي ، ياغوي هذه . كل ما في الأمر أنها بنت خالي » .

كان عمره اثنتي عشرة سنة أو ثلاث عشرة في ذلك الوقت . ظلت الفأرة تطارده في نومه .

أما الكلب ، فلم يمض يوم واحد ، بعد تلك الحادثة ، دون أن يدور حوله في المطبخ . قيل إنه نسي بقية الحادثة . ومهما قيل له فإنه كان يفهم شيئاً واحداً : « فأرة » . وكان ينطلق نحو ميدان الصيد الخاص به . واذا غاب عن الأنظار فإنهم سيجدونه هناك حتماً في زاوية من زوايا المطبخ . لكن هذا كله لم يُحَوِّله قطاً بطبيعة الحال ، ومجرد رؤ ية فأرة تنطّ من الرف إلى الأرض ، كانت تجعل الكلب هستيرياً وتطلقه من عقاله . وفي ظاهر الأمر كانت فأرة أبدية تعيش في جمجمته . وهذا الكلب ، الذي بدت عيناه وكأنهما قد غيرتا لونهما ، أخذ جيمبي يحس بالحقد إزاءه . لقد لمح ، في علبة الخياطة الخاصة بياغوي ، إبرة كان يتدلى من ثقبها خيط أحمر ، فتحينّ الفرصة المناسبة لينقب أذن الكلب الرقيقة . وشرع يفكر أن من الأفضل أن أنتظر اللحظة التي أبدأ فيها العمل . وعندما سيحدث الانفجار ويعثر على الابرة وخيطها الأحمر معلقين في أذن الكلب ربما ستحوم الشبهات ، حول

ياغوي ، ولكن عندما جدّ الجد ولىّ الكلب هارباً وهو ينبح . فاضطر جيمبي إلى التراجع عن مشروعه . أخفى إبرة الخياطة في جيبه وعاد راجعاً إلى بيته . وفي البيت ، رسم ، على قطعة من الورق ، ياغوي والكلب ، وخيّط عليها بعض الغرز بالخيط الأحمر ، ثم رتب كل ذلك ، في درج مكتبه .

تذكر جيمبي ذلك الكلب ، خاطف الفئران ، عندما كان يحلم بتوجيه الكلام إلى الفتاة ، حول موضوع كلبها أو حول أي شيء . ولما كان لا يحب الكلاب ، في واقع الأمر ، فإنه لم يكن لديه شيء هام يقوله حولها ، كما أنه كان قانعاً أيضاً أن الكلب سيعضه اذا اقترب منه . لكنه يعرف تمام المعرفة أنه لم يتمكن من الاقتراب من الفتاة لهذا السبب وحده .

مالت الفتاة قليلاً ، دون أن تتوقف ، وأطلقت سراح شيبا من عقاله . ولما رأى الكلب نفسه طليقاً اندفع أمامه ، ثم استدار على أعقابه ، وعاد يجري فسبق الفتاة ، ثم رجع فتوقف عند قدمي جيمبي ، وطفق يشم حذاءه . قفز جيمبي صارخاً :

- « آ . . . آه ! » .

- « فوكو ! فكو ! » .

كانت المراهقة تسعى جاهدة في نداء الكلب .

- « آ . . . آه ! النجدة ! » .

- « فوكو ! فكوكو ! » .

تغير لون جيمبي . عاد الكلب نحو صاحبته .

- « يا إلهي . . . لقد أفزعني فزعاً . . . ! » .

ترنح . ثم جلس مقرفصاً . بيد أن وجعاً حقيقياً أحاق به فأغلق عينيه . كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً وشعر بالغثيان . فرك جبينه . وفتح جفونه . عادت الفتاة فربطت الكلب . ثم شرعت تتسلق الشاطىء من جديد ، دون أن تنظر إلى الخلف . شعر جيمبي بأنه سوف ينفجر غيظاً . لا ريب أن الكلب اكتشف شناعة قدميه لذلك اقترب منه وشمّه ، كما تخيل .

- « أتمنى له الموت ! إنني سوف أخيط له أذنيه . . . ! » .

كان يدمدم وهو يعدو راكضاً . لكن غضبه ما لبث أن تبدّد قبل أن يدرك الفتاة . ناداها بصوت أجش :

ـ « يا آنسة ! » .

استدارت الفتاة فطار شعرها الذي كان على هيئة ذيل الحصان . وعندما رأى جيمبي عنقها المعبود تلوّن وجهه المصفرّ :
ـ « عندك كلب جميل . . . يا آنسة . من أي عرق هو ؟ » .
ـ « إنه من جنس شيبا » .
ـ « نعم . من جنس شيبا . ولكن من أي منطقة ؟ » .
ـ من كوشو ! » .
ـ« وهل هولك ؟ وهل ترافقينه إلى النزهة ، كل يوم ، في مثل هذه الساعة ؟ » .
الساعة ؟ » ـ
ـ « نعم » .
ـ « هنا دائماً . . . على هذا الطريق ؟ » .

لم تبد الفتاة حذراً من جيمبي كما يبدو . استدار ناظراً إلى أسفل التل . أي بيت من هذه البيوت يمكن أن يكون بيتها ؟ يبدو أنه كانت هناك منازل عديدة هانئة ، سعيدة ، غارقة في الخضرة الفتية .
ـ « هل يصطاد كلبك الفئران ؟ » .

لم يبتهج وجه المراهقة .

ـ « أعرف تمام المعرفة أن القطط هي التي تفترس الفئـران ، وليست الكلاب . بيد أن بعض الكلاب تفعل ذلك أيضاً . هل تتصورين ذلك ؟ كان عندنا واحد منها . وكان يقوم بذلك جيداً » .

لم تلق اليه نظرة واحدة .
ـ « ولما كان كلباً ، قبل كل شيء ، فإنه لم يكن يأكلها عندما يصطادها ، كنت آنذاك طفلاً صغيراً . وكان ذلك العمل يبعث الانقباض في صدري . . . . لأنني كنت أرغم على حمل تلك الفأرة بعيداً » .

كان جيمبي يكرر ويعيد هذه العبارات غير الجذابة ويلح في إعـادتها

وتكرارها . كان يرى ، أمام ناظريه ، من جديد ، تلك الجثة الهامدة الصغيرة ، وشبكة الدم تحيط بفمها ، وأسنانها البيض المطبقة .

ـ « كان كلباً يابانياً . قوائمه دقيقة ، مقوّسة ، ترتجف باستمرار . كنت أمقته . يوجد من هذه الكلاب أنواع وأجناس ، كما يوجد من الناس أيضاً . أليس كذلك ؟ على كل حال . . . كلبك هذا سعيد جداً ، لأنه يستطيع أن يقوم بالنزهة معك على هذا النحو ! » .

هل نسي خوفه الأخير ؟ كان ، في أثناء حديثه ، ينحني ، بين وقت وآخر ، لكي يربت على ظهر الكلب . وبحركة رشيقة ، نقلت الفتاة عقال الكلب من يدها اليمنى إلى يدها اليسرى ، لتحثّ الكلب على المشي أمام جيمبي . أما جيمبي ، فقد ضبط أعصابه ، عندما غيّر الكلب مكانه أمام ناظريه ، لكي لا يمسّ ركبتي الفتاة . لكنها ستعود مع كلبها ، كل يوم ، لتتسلق المنحدر المحفور في التل تحت أوراق أشجار الجنكة . إنه واثق من ذلك . الآن على الأقل . . . ! آه ! لو أنه يستطيع أن يتأملها سراً في بقعة فوق الربوة الصغيرة . انتزعه هذا الأمل الجديد من أفكاره التي كانت تدور حول العنف . وأصبح الآن أكثر هدوءاً . كان يتخيل رطوبة العشب ، فوق الربوة ، حيث سيكون مضطجعاً عاري البدن . والفتاة تصعد نحوه وتظل قريبة منه إلى الأبد . . . أي نشوة تفوق الوصف !

ـ « أعتذر عن إزعاجك . أنت تملكين كلباً في منتهى الجمال . وأنت مثلي تحبين الكلاب . . . ما عدا تلك التي تهاجم الفئران بكل تأكيد . . . ! » .

ظلّت الفتاة على عدم اكتراثها . ثم انطلقت مع كلبها ، وشرعت تتسلق الربوة ، على طرف الطريق ، وهي تدوس على العشب الناعم . ومن الاتجاه المعاكس ، برز شاب ، طالب ، ظن جيمبي أنه سوف يقع مغشياً عليه من شدة الحياء ، عندما رأى الفتاة وهي تمدّ ذراعها ، وتتناول ذراع ذلك الشاب . على هذا النحو ، كانت تزعم أنها ترافق الكلب إلى النزهة ، فتأتي مسرعة نحو هذا الموعد !

إن الحب هو الذي كان يجعل عيني الفتاة السوداوين عينين لامعتين نديتين . لقد أذهلت مفاجأة الاكتشاف جيمبي . تحولت العينان إلى بحيرة سوداء .

ـ « أريد أن أعوم في صفاء عينيها وأغوص في بحيرة الظلمات بكياني كله » .

تضافر الإعجاب واليأس وتنازعا في داخله ، في وقت واحد . أحسّ بالاندحار . فتابع سيره . ثم أخذ يتسلق الأكمة بدوره . وبعد ذلك استلقى على العشب لينظر إلى السماء .

لقد كان الطالب هو ميزونو ، صديق أخي ميياكو والفتاة ماشييه . منذ حوالي عشرة أيام ، وجهت ميياكو الدعوة لأخيها ، وميزونو ، وماشييه ، احتفالاً بقبول الشابين في الجامعة ، وكان عليهم ، بعد ذلك ، أن يذهبوا جميعاً لرؤ ية أشجار الكرز المزهوة ، ليلاً في حديقة أوينو .

كان ميزونو يحكم أن بريق عيني ماشييه لا مثيل له . كان يخيل اليه أنه كان يغرق في تينك الحدقتين اللتين تلتهمان العينين .

قال للفتاة :

- « أريد أن أراك صباحاً . . . وأرى عينيك عندما تفتحينهما . لا شك أنهما ستكونان في غاية الجمال ! اشرحي لي كيف تكون عيناك صباحاً ؟ » .

- « تكونان منتفختين جداً من أثر النوم . . . هذا ما أظنه » ردّ عليها ميزونون رافضاً تصديق ذلك :

- « لا مؤكداً . أنا . . . على كل حال . . . عندما أستيقظ أودّ لو أستطيع النظر اليك في اللحظة ذاتها » .

هزّت الفتاة رأسها . لكنه أضاف :

- « حتى الآن . كنت أعرف أنني أراك في المدرسة بعد يقظتي بساعتين على الأقل » .

- « لقد سبق أن قلت لي هذا الكلام . والآن ، عندما أستيقظ أفكر في نفسي : في خلال ساعتين ! » .

- « إذن فلا يمكن أن تكوني نائمة عندئذ » .

- « آه ! لا أعرف . . . » .

- « إن بلادنا اليابان جميلة . أليس كذلك ؟ ففيها يمكن أن نصادف أناساً يملكون عيوناً سوداً مثل عينيك » .

كان ذلك السواد العميق أيضاً يبرز سحر الحاجبين والشفتين . أما شعر ماشييه ، فيمكن أن يقال إنه يضيف فتنة إلى لمعان عينيها السوداوين .

ـ « ماذا حكيت لذويك ؟ إنك سوف تأخذين الكلب الى النزهة ؟ » .
ـ « لم أقل لهم شيئاً . لكنه كان معي . ثم إن طريقتي في اللباس تكفي » .
ـ « ألا يمكن أن يكون لقاؤ نا هنا ، بالقرب من بيتك ، مغامرة كبيرة ؟ » .
ـ « أنا لا أريد أن أخدع أهلي ، على كل حال . ولو لم يكن الكلب موجوداً لما تمكنت من الخروج . ولو فرضنا أنني تمكنت من الهرب . . . إنني حينذاك سوف أضطرب عندما أعود ، فينكشف أمري جلياً كالنهار . ولكن ما وضع والديك أنت ؟ أليسا قاسيين أيضاً ؟ » .
ـ « آه ! لنتحدث عن شيء آخر ، إننا مرغمان ، أنا وأنت ، على العودة إلى البيت ، على الأقل ، عندما نكون معاً . . . علينا ألا نتحدث عنهم . . . وإلا كان الأمر سخيفاً . عليك ألا تضيعي وقتاً طويلاً . . . ما دام هذا الوقت مخصصاً لنزهة الكلب من الناحية المبدئية ! » .

وافقت . فجلس الاثنان على العشب . وأخذ ميزونو الكلب ووضعه على ركبتيه .

ـ « يعرفك فوكو الآن » .
ـ « تخيلي لو أن الكلاب كانت تعرف الكلام ! إنها حينئذ سوف تحكي كل شيء . . . ولن نتمكن ، بعد ذلك ، من اللقاء أبداً . . . بدءاً من هذا اليوم ! » .
ـ « لن يغير هذا في الأمر شيئاً ، ما دمت سأنتظرك على كل حال . قررت الذهاب إلى جامعتك نفسها . وسيكون ذلك أيضاً : « في أقل من ساعتين ! » عندما سنستيقظ . . . ألا تظن ذلك ؟ » .

فردد ميزونو بصوت خفيض :

ـ « في أقل من ساعتين . . . ! في ذات يوم . . . سوف نتدبر أمرنا . . . بشكل يجعلنا لا ننتظر ساعتين أيضاً » .

ـ « ماما لم تكن واثقة بنا . إنها تقول عنا إننا صغيران جداً . وأنا سعيدة لأنني عرفتك صغيراً ! وكنت أتمنى لو عرفتك أصغر . في مدرستي . أو حتى في المدرسة الابتدائية . لا يهم ، في أي وقت . أعرف أنني كنت سأحبك ، هل سردت عليك أنه عندما كنت طفلة رضيعة كنت أحمل على الظهر ويؤتى بي إلى هذا المكان لكي

ألعب ؟ وأنت ؟ ألم تكن تأتي هنا عندما كنت صغيراً ؟ » .

- « لا لا أظن ذلك » .

- « هل هذا صحيح ؟ حسناً . أنا متأكدة تماماً أنني صادفتك هناك . . . على المنحدر . . . حين كنت رضيعة . وإنني لأتساءل أيضاً إن لم يكن هذا هو السبب الذي دفعني إلى حبك الآن هذا الحب » .

- « آه ! كم أتمنى لو كان ذلك حقيقة » .

- « كان الناس آنذاك يرونني طفلة خفيفة الظل جداً فيأخذونني بين أيديهم ويهدهدونني . كانتا عيناي أكبر وأكثر استدارة من الآن » .

قالت ذلك ثم التفتت نحو ميزونو بعينيها السوداوين الرائعتين . وأضافت :

- « منذ وقت ليس بالبعيد ، في يوم الاحتفال بنهاية الدراسة في المدارس الثانوية ، ذهبت لأقوم بجولة مع الكلب . على اليمين ، في أسفل التل ، يوجد مستوى من الماء حيث كان في وسع الانسان أن يستأجر زورقاً ويتجول فيه وكان ثمة صبيان وبنات يركبون الزوارق . كانوا كلهم قد تخرجوا ، في تلك السنة ، وحصلوا على شهاداتهم . وحين رأيتهم يجدفون في زوارقهم ويحتفلون باليوم الأخير ، بدأت أغبطهم . وقد بقيت بعض الفتيات على الجسر يحملن شهاداتهن بأيديهن . كن يستندن على الحافة ليتأملن أصدقاءهن وهم يدورون بالزوارق . لم أكن أعرفك آنذاك ، في نهاية الدراسة الثانوية ، ربما كنت تتسلى مع هذا النوع من الفتيات » .

- « لا معهن . . . ولا مع غيرهن ! » .

- « هوم . . . هوم . . . ! » .

ومالت برأسها مرتابة :

- « على كل حال ، لا توجد زوارق إلا في الأيام الجميلة ، أما قبل ذلك فسطح الماء متجمد ، والبط البري كان يحوم فوقه . وأذكر أنني تساءلت ، ذات يوم ، أي واحدة منها كانت تشعر بالبرد أكثر من غيرها : هل هي التي تمشي على الجليد أم تلك التي تخفق فوق الماء بأجنحتها . يقال إنها تأتي لقضاء النهار هنا ، هرباً من الصيادين ، أما في المساء فتنطلق نحو بحيراتها ونحو جبالها » .

- « هل هذا صحيح ؟ » .

- « وفي اليوم الأول من أيار نظرت إلى الرايات الصغيرة الحمراء عندما مرّ

الاستعراض أمام شارع « اللحافلا » من الجهة الثانية كما تعرف . وتلك الصفوف ، الصفوف الحمراء ، في الأوراق الخضراء ، في أشجار الجنكة ، كانت ، بكل بساطة ، في غاية الروعة » .

وفي الجانب الثاني الأسفل ، من المكان الذي كانا يجلسان فيه ، كان ثمة جزء من مستنقع اصطناعي قد ردم وأعدّ ليكون أرض تدريب للاعبي (الغولف) . وفي الاتجاه المعاكس كانت أشجار الجنكة التي تحاذي الشارع ، والجذوع السود التي كانت تنتصب على خضرة الربيع التي توزعها الأشجار . وثمة ضباب وردي كان ينتشر شيئاً فشيئاً في سماء المساء . كانت ماشييه تداعب الكلب الذي بقي على ركبتي ميزونو . أخذ ميزونو يدي الفتاة واحتفظ بهما بين يديه :

- « وبينما كنت أنتظر ، كان في رأسي شيء يشبه اللحن . إنه مثل (الأكورديون) العذب . استلقيت على ظهري ، وأغمضت عينيّ . . . » .

- « ولكن . . . أي شيء يشبه هذا ؟ » .

- « لا أعرف . . . لعله يشبه الـ (كيميغايو) . . . » .

-« النشيد الوطني ؟ لكنك لم تخدم في الجيش » .

شعرت بشيء من القلق فالتصقت بصديقها .

- « لعل ذلك يعود فقط إلى سماعه ليلة بعد ليلة في الاذاعة . . . في نهاية البرامج » .

- « أما أنا . . . فإنني أردد ليلة بعد ليلة : طابت ليلتك يا ميزونو ! » .

لم تتلفظ ماشييه بكلمة واحدة عن لقائها بجيمبي . بل إنها لم تجد أي أهمية في الحديث عن مقابلة هذا الفرد الغريب . لقد نسيته إذن إذا شئنا الحقيقة . لقد توجه انتباهها إلى جانب آخر ، مع أنه كان في مقدورها ، لو حوّلت رأسها قليلاً ، أن تلمح جيمبي مستلقياً في العشب . لكنها ، حتى لو فعلت ذلك ، لما انتبهت إلى أنه هو الرجل ذاته . أما جيمبي ، بالمقابل ، فإنه لم يكن قادراً على منع نفسه من تأمل ذينك الشابين الصغيرين . كان مستلقياً على ظهره ، يحس برطوبة الأرض تنساب إلى داخله . في هذه اللحظة من السنة يفكر معظم الناس بنبذ معطف الشتاء وارتداء اللباس الربيعي . لم يكن جيمبي يرتدي هذا اللباس أو غيره . انقلب في مكانه لكي يواجه الشابين . إنه لم يكن ليغبطهما ، بل إنه كان ، أكثر من ذلك ، ليمقت مشهد سعادتهما . أغلق عينيه برهة ، وتخيل عموداً من النار

يأخذ الشابين في طريقه الغامض على سطح أمواج لا يعرفها أحد . كان يريد أن يؤمن بأن هذه الرؤية تفضح سعادتهما الموقتة .

ـ « إن أمك في غاية الجمال يا جين ـ شان » .

إنه صوت ياغوي . . . كان جالساً إلى جوارها على حافة البحيرة ، حيث تزهر أشجار الكرز الوحشي . وكانت الأغصان المزهرة تنعكس في الماء ، وبعض العصافير تغرد .

ـ « إنني لأعبد الطريقة التي أرى فيها أسنانها كلما تحدثت » .

ولكن ألم تكن تسأل نفسها كيف تستطيع امرأة ، في مثل جمالها ، أن تتزوج من رجل قبيح مثل والد جيمبي ؟

ـ « كان أبي وأمك الطفلين الوحيدين . ولما كان أبوك قد مات فقد قال أبي إن عليكما ، هي وأنت ، أن تأتيا لتسكنا معنا في البيت . . . » .

ـ « لا . . . ليست هناك مشكلة ! » .

أحمر وجه جيمبي حتى الأذنين .

هل كان يخشى أن يفقد أمه ، أم أنه كان يخجل من ذلك الفرح ، الذي كان يبدو عليه ، عندما يفكر بأن يعيش مع ياغوي ، تحت سقف واحد ! ربما كان هذا أو ذاك .

كان بيت جيمبي آنذاك يضمّ ، بالإضافة إلى والدته ، جدّيه وأخت أبيه الكبرى ، المطلّقة . كان عمر جيمبي عشر سنوات عند موت أبيه . لقد وجد أبوه جريحاً ، أصيب في رأسه ، فوق مياه البحيرة ، سرت شائعة بين الناس أن هناك من أراد قتله ثم التخلص من جثته بهذه الطريقة ، ومع ذلك ، وجد بعض الماء في رئتيه ، فاستنتج رسمياً أن سبب الموت هو الغرق . لكن الافتراض الذي يزعم أنه دُفع إلى الماء ، إثر عراك ، على جرف البحيرة نفسها ، لم يكن مستبعداً تماماً . أما أسرة ياغوي فقد صَبّت جام غضبها ولومها على المرحوم نفسه . فجبهته جبهة من كتب عليه الانتحار ، وفي قرية زوجته ومسقط رأسها ! ولقد أقسم جيمبي الايمان المغلظة أنه لن يترك موت أبيه دونما عقاب ، اذا تأكد أن يداً أخرى غير يده ، هي التي قضت عليه . لذا كان ، كلما عاد إلى قريته اختبأ في دغل قريب من المكان الذي وجدت فيه جثة أبيه ليراقب السابلة . وفي ذات يوم أصاب السُّعار بقرة كان

يقودها أحد الفلاحين فتوقف جيمبي عن التنفس . وفي مرة أخرى كانت البراعم في ذروة ازدهارها ، فقطف واحدة من الزهور البيض ، لكي يضعها بين صفحات كتاب حتى تجفّ ، وأقسم أن يثأر لموت أبيه .

قال بصوت قوي :

- « وماما أيضاً ، لا تريد أن تعود ، للسبب نفسه . . . لأن أبي قتل هنا » .

ظلت ياغوي صامتة أمام وجهه المضطرب .

لم تنقل إلى جيمبي الشائعة التي كانت تنتشر من الأفواه إلى الآذان ، فإذا صدقنا القرويين فان شبح الأب يتجول على شاطىء البحيرة . . . وعلى أطراف مكان المأساة تسمع أصوات وقع أقدامه . ولكن عندما نستدير نحوها لا نرى أحداً . واذا هربنا بأقصى سرعتنا ، انسحب الشبح من المنطقة ، وضعف صوت خطواته شيئاً فشيئاً عند ابتعاده .

حتى زقزقة الطيور ، التي ينعكس صداها على ذروة الأغصان الواطئة لأشجار الكرز المتوحشة ، أصبحت تذكر ياغوي بخطوات الشبح .

- « لنعد إلى البيت يا جين ـ شان ـ إن هذه الأزهار التي تنعكس في الماء تثير في نفسي الفزع » .

- « لا شيء فيها يبعث الخوف » .

« هذا لأنك لا تنظر اليها بشكل كاف » .

- « ولكن . . . ألا تجدينها جميلة ؟ » .

جرّها بعنف من ذراعها ، في اللحظة التي كانت تحاول فيها النهوض ، مما جعلها تسقط فوقه :

- « جين ـ شان ! » .

تمكنت من الفرار وأذيال ثوبها الياباني تتطاير خلفها . لحق بها جيمبي ليمسك بها . وقفت لاهثة بعد قليل . وفجأة تعلقت بكتفيه :

- « جين ـ شان . . . تعالِ اسكنِ معنا أنت وأمك » .

- « لا . . . لا أريد ذلك » .

في الوقت ذاته كان يضمّها بكل قوته . امتلأت عيناه بالدموع رغماً عنه .

كانت ياغوي تنظر اليه دون أن تنبس ببنت شفة ، كانت عيناها نديتين أيضاً غارقتين في التأمل . ثم تمكنت من أن تضيف أخيراً :

لقد سمعت أمك تقول لأبي انها سوف تموت أيضاً بدورها وأن عليها أن تسكن بيتاً مثل بيتنا » .

كانت تلك المرة الوحيدة التي أخذ جيمبي فيها ياغوي بين ذراعيه . كانت أسرة ياغوي ، التي هي أسرة أم جيمبي أيضاً ، تتمتع بشهرة قديمة متينة بين سكان شواطىء البحيرة كلهم . وبعد تلك الحقبة ، بعدة سنوات ، عاد جيمبي إلى المنطقة ليعلن عن اشتباهه وشكه ، إذ زعم أن حادثاً قد حدث لأمه ، فاضطرت إلى هذا الزواج غير المتكافىء، وفي لحظةهذا الاشتباه هجرته أمه وعادت لتعيش مع أسرتها . لقد حاول عبثا أن ينهي دراسته عندما أصيبت بالسل بعد ذلك ، لكنه خسر أصغر المساعدات التي كانت تخصه بها . أما من جهة أبيه ، فقد مات جده ، ولم تبق له سوى جدته وعمته . وهذه العمة ، كما سمع ، كانت تحتفظ معها بابنتها التي كانت حصيلة زواجها قبل الطلاق . ولكن مضى وقت طويل جداً لم يكتب فيه جيمبي رسائل إلى القرية ، لذا فهو لا يعرف إن كانت تلك الفتاة قد تزوجت .

كان جيمبي مستلقياً على العشب الندي ، بعد مطاردته ماشييه ، وكان يفكر في أنه لم يحدث تغيير كبير منذ أن كان يختبىء في الدغل ، على شاطىء البحيرة ، بالقرب من قرية ياغوي . خيّم عليه الحزن الشديد ، أضف إلى ذلك أنه نبذ التفكير الجدي بالثأر لموت أبيه . ولا بد أن القاتل لم يكن جريئاً جداً . هذا إذا كان هناك ثمة قاتل . وجد جيمبي بعض الراحة ، كما يشعر بذلك أي إنسان استطاع أن يتحرر من مسٍّ قديم يستولي عليه ، أو وسواس كان قد تمكن منه ، دون أن يعرف أي شيخ مجنون ألقى القبض عليه في حياته واعترف له بجريمته ؟ وهكذا كان فهل عاد ، هو جيمبي ، في زمن هذين الولدين الغارقين في أسرار حبهما الصغير؟ رأى أزهار الكرز الوحشي تتضاعف في مياه البحيرة ، التي لا تحركها أي نسمة ، وكان كل ذلك واضحاً في نظره . أغلق عينيه . وأحيى وجه أمه .

ذهبت الفتاة تواً عائدة مع كلبها (الشيبا) . وفي البرهة ، التي فتح فيها

جيمبي عينيه ، كان الطالب قد انتصب واقفاً ، فشرع ينظر اليهما وهما يبتعدان عنه ، من ربوته الصغيرة . كانت الشمس تميل نحو الغروب محرقة أوراق أشجار الجنكة . كان الكلب على عجلة من أمره في العودة إلى بيته وكان يجر عقاله جراً . لم يكن ثمة أحد على الطريق ، ومع ذلك لم تحاول الفتاة أن تلتفت إلى الخلف مرة واحدة . كانت تسير بخطوات قصيرة ، سريعة ، أنيقة جداً . تأكد جيمبي أنه سوف يراها ، في اليوم التالي ، مرة ثانية عند تسلقها الهضبة فشرع يصفر . ثم اتجه ، بعد ذلك ، نحو ميزونو ، وهو يصفر دائماً . ظل يصفر حتى عندما رآه ميزونو . ثم قال :

ـ « أظن أنك لا تضجر هنا ! » .

أشاح ميزونو الطرف عنه .

ـ « قلت . . . يبدو أنك لا تضجر هنا ! » .

وفي هذه المرة استدار نحوه ميزونو وواجهه وقد عقد حاجبيه :

ـ « هيا ، هيا . . . لا فائدة من النظر إليّ بهاتين العينين ! لِمَ لا نجلس ونثرثر قليلاً ؟ كل ما أقوله هو أنه يوجد عدد من الناس السعداء . وهم يستحقون الغبطة . هذا كل شيء » .

أدار الشاب ظهره محاولاً أن ينطلق .

ـ « إذن . . . فأنت تهرب ؟

جابهه ميزونو :

ـ « إنني لا أهرب . كل ما في الأمر أنه لا شيء عندي أقوله » .

ـ « أو ربما خطر في بالك أنني أخطط لمؤامرة صغيرة ؟

هيا . اجلس . هيا » .

ظل ميزونو واقفاً في مكانه .

ـ « إني أجدها رائعة فعلاً . . . صديقتك الصغيرة تلك . أليس من حقي ذلك ؟ إنها رائعة . نعم ! أنت على الأقل . . . لا بد أن تكون سعيداً ! » .

ـ « وبعد ؟ » .

ـ « إن بي رغبة عارمة في أن أتحدث مع أي إنسان سعيد ، لا أخفي عنك شيئاً . لقد تبعتها إلى هذا المكان . . . صديقتك . . . وما ذلك إلا لأني وجدتها جميلة . تصور دهشتي عندما رأيت أنها . . . وأنت . . . كنتما على موعد ! » .

ذهل ميزونو وأشاح بنظره . لكنه لم يقم بأي حركة لكي يذهب .

ـ « اسمعني . لنتحدث قليلاً » .

وضع جيمبي يده على كتف الشاب محاولاً أن يحتجزه . فدفعه الشاب بعنف :

ـ « أبْلَه . . . ! » .

فقد جيمبي توازنه . فتدحرج على منحدر التل وكاد أن يتحطم على الإسفلت ، في الجهة المقابلة السفلى ، وأصيبت كتفه اليمنى ببعض الرضوض . ظل جالساً في مكانه مدة ثانية وقد تشابكت ساقاه ، ثم أمسك بكتفه ، ونهض واقفاً ، واستأنف تسلق التل من جديد . كان ميزونو قد اختفى . وكان جيمبي يلهث وكأنه أحسّ بثقل يسحق صدره . جلس على الأرض . وترك رأسه يسقط ببطء على ركبتيه .

لماذا اعترض سبيل الطالب ، بعد رحيل الفتاة ؟ إنه ، هو نفسه ، لم يجد تفسيراً لذلك . لم تكن تدفعه أي نية سيئة ، في أثناء اندفاعه نحو الشاب لاهثاً . كما أنه لم يكن يكذب أبداً عندما قال إن كل ما كان يريده هو التحدث معه عن جمال الفتاة . من يعرف ؟ ربما كان يكفيه أن يبدي مخاطبه شيئاً قليلاً جداً من الفهم . لقد كان في وسع جيمبي آنذاك أن يعلمه كيف يكتشف مظاهر هذا الجمال الذي كان يهرب منه ، حتى هذه اللحظة . لكن هذه الطريقة في استدعائه الفجائي . . . :

ـ « أظن أنك لا تضجر هنا ! » .

ماذا كان بوسعه أن يقول اسوأ من هذه الكلمات الحاقدة ؟ ألم تكن توجد وسيلة يعبر بها عما في نفسه تعبيراً أكثر سعادة ؟ مهما يكن من أمر ، وجد جيمبي نفسه في حال من الضعف شديدة ، إلى درجة جعلت دفعة بسيطة من الطالب كافية لدحرجته على جادة الطريق . كان يتمنى لو يستطيع أن يكبي أمام هذا الانحطاط في بدنه . كانت إحدى يديه متقلصة في الحشيش . وكانت الأخرى تسند كتفه المرضوضة . رأى الغسق الوردي يختلط تحت جفونه المتغضنة .

لن تعود الفتاة أبداً للقيام بنزهتها مع كلبها على طول الشاطىء ، بلا ريب ، اذا استطاع الصبي أن ينذرها قبل الغد . وقد يراها جيمبي ثانية وهي تصعد في

ذلك الممر بين أشجار الجنكة . وبكل تأكيد ، سوف يضطر الطالب للاعتراف بذلك حتماً ، أن المسألة ليست مسألة الظهور ، سواء أكان هذا الظهور على الطريق أو على الربوة ، ونظَر جيمبي حوله ، في كل مكان ، دون أن يلمح مخبأً . تلاشت صورة الفتاة ، ولباسها الصوفي الأبيض ، والمربعات الحمر في أسفل بنطالها . ولم يبق في رأس جيمبي سوى شيء واحد هو تلك السماء الوردية . فصرخ بصوت مخنوق :

- « هيزاكو ! هيزاكو ! » .

كان ينادي هيزاكو تاماكي هذا النداء .

كان ، في أحد الأيام ، ذاهباً في تكسي لمقابلة هيزاكو ، وكانت سماء المدينة قد اكتست بهذه الحلة الوردية ذاتها ، وإن كانت ساعة الغسق بعيدة - حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر على الأغلب . ومن أقرب نافذة على جيمبي ، كانت السماء تتخذ لُوَيْنات ضعيفة الزرقة ، ولكن كان يمكن للجالس قرب السائق ، الذي خفض زجاج نافذته قليلاً ، أن يرى لوناً مغايراً .

مال جيمبي قليلاً نحو كتف الرجل وسأله :
- « أليست السماء وردية نوعاً ما ؟ » .
- « نعم . . . هذا ما يبدو ! » .
قال هذه الجملة بلا اكتراث .
- « غلالة وردية فعلاً . وأنا أريد أن أعرف السبب . وأرجو ألا تكون عيناي هما السبب . . . ! » .

- « لا . . . لا . . . ليست عيناك . . . » .

ظلّ سائلاً إلى الأمام . شمّ رائحة الثياب البالية التي تفوح من السائق .

ثم أصبح ، بعد ذلك ، كلما أخذ سيارة أجرة ، لا يستطيع أن يمنع نفسه من التفريق بين عالمين اثنين ، الأول منهما وردي باهت والآخر مائل إلى الزرقة . فالأشياء تبدو ، عبر زجاج السيارة ، زرقاء ، أما الأشياء الأخرى التي نراها ، عبر الباب الأمامي عندما يكون زجاجه منخفضاً ، فتبدو بالتعارض وردية مبهمة . ليس التفسير معقداً بلا ريب . لكن كان يبدو أن جيمبي قد توصل إلى الاقتناع بأن السماء نفسها ، والمدينة ، والجدران ، والشوارع ، وحتى كل جذع من جذوع

الشجر ، كانت كلها تشع هذا اللون الوردي الأخاذ فعلاً . وفي الربيع ، وكذلك في الخريف ، يقود كثير من السائقين سياراتهم الصغيرة ، بعد أن ينزلوا زجاج النافذة المجاورة لهم ، ويرفعوا زجاج النوافذ الخلفية . وكانت كل جولة ، حتى لو كانت وسائلها لا تسمح باستخدام سيارة الأجرة باستمرار ، قد عزّزت قناعة جيمبي .

إذن اعتاد أن يميز بين عالمين : الأول وردي وحار ، وهو عالم السائق ، والثاني أزرق وبارد وهو عالم الراكب ، أي عالم جيمبي في هذه الحال . وبكل تأكيد إذا تسرّب العالم عبر الزجاج فإنه يبدو أكثر نصوعاً . وفي طوكيو يمكن أن يكون ذلك الغبار المنتشر ، كأنه حجاب في السماء فوق المدينة ، هو الذي يحدد اللَّوْنَيْن الوردي . وعندما كان جيمبي يستند بمرفقه على ظهر المقعد الأمامي ، ويميل لمراقبة هذا العالم السابح في اللون الوردي ، في معظم الأحيان ، كان يحدث له أن يهتاج بفعل رطوبة الهواء الساكن ، وتتملكه الرغبة في تعنيف السائق صائحاً :

- « وبعد . . . ماذا ؟ » .

لكي يحصل فقط على ذريعة تمكنه من الأخذ بتلابيبه ، كان يجب أن نرى هنا، في هذا، مظاهر التحدي والرفض بلا أدنى ريب. ولكن. . . ضدّ من. . ؟ كان جيمبي يجهل ذلك . لكنه لا يجهل بالمقابل أنه لو ترك على هواه لصُنف في فئة المعتوهين حتماً . لكنه كان قادراً على الاقتراب ، متخذاً هيئة التهديد ، والشرر يتطاير من عينيه ، دون أن يبدو على أحد السائقين شيء من الخوف . إننا نعرف تمام المعرفة أن السماء والمدينة كلها إذا ظلتا ورديتين لفترة طويلة جداً ، فإن هذا يعني أن الليل لم يحن بعد .

ومهما يكن من أمر فان لهم بلا شك كل الحق في عدم الخوف . ان المرة الأولى التي سمحت خاصة زجاج سيارات الأجرة لجيمبي أن يضع حداً بين عالم وردي وعالم مائل نحو الزرقة ، جعلته أيضاً يذهب باحثاً عن هيزاكو ، بفارغ صبر ، وقد مال على المقعد الأمامي . إن أي سيارة من سيارات الأجرة تثير لديه ذكرى تلك الفتاة ، لكن عفونة الثياب القديمة ما لبثت أن اختفت ليحل محلها ، في ذلك اليوم ، عطر تلك الثياب الصوفية التي كانت ترتديها هيزاكو ، ثم جاء يوم ، بعد ذلك ، أصبح كل سائق يثير لديه ترابطاً مع ذلك العطر . وحتى لو كانت ثياب الرجل جديدة . فهي لا تغير من الأمر شيئاً .

كان جيمبي آنذاك قد طرد من سلك التعليم عندما اكتشف وردية السماء . وكان على هيزاكو نفسها أن تبدل المدرسة . ولم يعودا قادرين على اللقاء إلا خلسة . وحتى قبل وصولهما اليه بمدة طويلة كان جيمبي يخشى مجرى الأحداث على هذه الشاكلة . لقد همست في أذنه :

ـ « لا تذكر شيئاً للآنسة أوندا بشكل خاص . . . إن سرنا لا يخص غيرنا . . . » .

احمر وجه هيزاكو ، كأنهما كانا في مكان مغامراتهما السرية فعلاً .

ـ « إن سراً نحتفظ به يكون مشبعاً بالرقة ، مليئاً بالسعادة . وعندما يتسرب يصبح متعطشاً للانتقام كأنه إبليس ! » .

كانت هيزاكو تتأمله من أسفل وقد حفرت غمازتان صغيرتان في خديها . كانا واقفين ، وجهاً لوجه ، في زاوية من أحد الممرات في المدرسة . وكانت احدى التلميذات قد تعلقت ، خلف نافذة ، بأحد أغصان شجرة كرز كانت قد زينتها الأوراق الفتية ، واستعملتها أرجوحة . كانت الشجرة تهتز اهتزازاً جعلهما يعتقدان أنهما كانا يسمعان ، من خلف زجاج النافذة في الممر ، ضجة احتكاك الأغصان .

ـ « إن من يحبون لا يستطيعون الاعتماد على أحد . هل تفهمين هذا ؟ حتى على أمثال الآنسة أوندا . إنها جزء من أعدائنا الآن . والناس يتربصون بنا عبر عينيها . ويستمعون الينا من خلال أذنيها » .

ـ « أحس ، مع ذلك ، أنني سأقول لها كل شيء » .

ـ « لا أبداً . . . هذا غير ممكن » .

ألقى جيمبي حوله نظرة قلقة .

ـ «لكنني لا أستطيع. تصورأنها حاولت تعزيتي وأنها جاءت لتقول لي : (ماذا دهاك يا هيزا ـ شان ؟) ، لن أتمكن أبداً من إخفاء سرنا عنها » .

صاح بها جيمبي معترضاً بصوت قاس :

ـ « وما هي حاجتك للعزاء من صديقة ؟ » .

ـ « أنا واثقة من أنني ، عندما أراها ، سوف أنفجر باكية ، البارحة ، عندما عدت إلى البيت كانت عيناي منتفختين إلى درجة جعلت الماء نفسه لا يقدر على

إزالة الاحتقان منها . في الصيف . . . يوجد جليد في البرّاد ، لكن . . . في هذه اللحظة . . . » .

- « إنه موضوع ملائم للمحادثة ! » .
- « ولكن الأمر كله قاسٍ عليّ . . . » .
- « انظري إليّ . . . في عينيّ . . . » .

رفعت عينيها طائعة . كان وجود الفتاة أمامه يفرض نفسه عليه ويجعله يصمت .

قبل أن تصل علاقتهما إلى هذا المنعطف ، كان قد صمّم أن يسأل نوبوكو أوندا حول تاريخ عائلة تاماكي . فقد كانت هيزاكو لا تخفي شيئاً من أسرارها عن صديقتها .

لكنه لم يكن من السهل أبداً أن يدفع الفتاة أوندا نحو الكلام ، خشي جيمبي من أن تشك الفتاة ، ذات يوم ، بنواياه الحقيقية ، اذا ألح في توجيه الأسئلة اليها ، لقد كانت أوندا تلميذة مجتهدة جداً لكنها كانت تحمل طبعاً حاداً شديد الحركة .

في أحد الأيام ، قرأ بصوت عال ، في الصف ، نصوصاً من كتاب يوكيشي فوكوزاوا : « العلاقات الاجتماعية بين الرجال والنساء » . وبدأ بهذه الفقرة : « ذكر ، في إحدى القصائد الهجائية ، أن من المباح للزوجين أن يسيرا جنباً إلى جنب ، بعد اجتيازهما اثنين أو ثلاثاً من مجموعات البيوت » . ثم تابع حتى وصل إلى الفقرة التي تقول : « يحدث أحياناً أن تفاجئنا أمور غير لائقة . أمور بعض الأقارب من أهل الزوجين مثلاً . إذا أبدت الزوجة بعض الحزن عند سفر الزوج ، واذا حدّق الزوج بحنان إلى زوجته الراقدة في الفراش ، فإنهما يثيران حفيظة الأهل الذين يعدّون التصريح بالعواطف على هذا النحو الفاضح أمراً مشيناً » .

انفجرت التلميذات جميعاً آنذاك إلا أوندا التي ظلت جامدة في مكانها . فسألها جيمبي :

- « إنك لا تضحكين يا آنسة أوندا ؟ » لكن الفتاة لم تنبس بكلمة .
- « آنسة أوندا ، ألا تجدين ذلك مسلياً ؟ » .

ـ « لا ، يا سيدي » .

ـ « حتى لو كان ذلك صحيحاً كان في وسعك أن تضحكي مثل الأخريات ! » .

ـ ولكن ، ليست بي رغبة لذلك ، أستطيع أن أضحك ، بلا ريب ، مع الآخرين . لكنني لا أرى فقط لماذا يجب عليّ أن أفعل ذلك لأن الآخرين كلهم يفعلونه » .

قال جيمبي وقد أصبح فظاً قاسياً :

ـ « إنك تجادلين يا آنسة . تؤكد لنا الآنسة أوندا أنها لم تجد ذلك غريباً . ماذا تفكر في ذلك ؟ » .

لم يردّ على هذا السؤال سوى صمت مطبق .

ـ « إذن ليس هذا غريباً ؟ كتب يوكيشي فوكوزاوا هذه السطور في عام ١٨٩٦ ولقد مرّت علينا حربان عالميتان منذ ذلك الزمن . واذا كان الطابع الفريد لمثل هذه الأقوال لا يؤثر فيكن اليوم فذلك يعني فعلاً أن ثمة شيئاً ليس على ما يرام » .

كان جيمبي مندفعاً ، في هذه المحاكمة ، إلى أقصى حدٍّ ممكن من الاندفاع . لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يطرح هذا السؤال بشيء من الجفاء الملموس :

ـ « في هذه المناسبة ، هل رأت واحدة منكن الآنسة أوندا وهي تضحك . . . ولو مرة واحدة ؟ » .

ـ « أنا . . . نعم ! » .

ـ « أوه . نعم ، يا سيدي » .

ـ « بكل تأكيد . إنها تضحك غالباً ! » .

تدفقت الأجوبة هذه المرة في جو من المرح والمزاح الحسن .

فكر جيمبي ، بعد ذلك بمدة طويلة ، في أنه ربما كان ذلك الجانب الخفي الغامض في شخصية هيزاكو هو الذي جعل منها صديقة لا تفترق عن نابوكو أوندا . لقد كان ينبعث منها نوع من المغناطيسية كانت تقسر جيمبي قسراً على تعقبها . أليست هذه هي القوة ذاتها ، الكامنة في أعماقها ، التي كانت قد دفعت

الفتاة إلى قبول عروض جيمبي قبولاً حسناً ؟ لقد استيقظت المرأة ، في هيزاكو ، مع قسوة تشبه قسوة الدافع الكهربائي . وجيمبي نفسه ، عندما سلمت هيزاكو جسدها إليه ، شعر بأنه اهتز برعشة حتى تساءل فيما إذا كانت الأمور تجري على هذا المنوال مع كثير من الفتيات .

ربما كان في الإمكان أن يقدر أن هيزاكو كانت أول امرأة في حياة جيمبي . إن الأيام التي قضاها في غرام هذه الفتاة ، حين كان أستاذاً لها ، أصبحت تبدو الآن ، أمام ناظريه ، أسعد أيام حياته . وإن العبادة التي كان يوجهها ، قبل موت أبيه ، نحو ابنة خاله ياغوي ، كانت حبه الأول ، بالمعنى الخاص ، أي بكل براءة هذا الحب . ولعل جيمبي الآن ليس شاباً أكبر بكثير مما كان عليه .

لم يستطع أن ينسى أبداً واحداً من أحلامه كان قد رآه حين كان عمره تسع سنوات أو عشراً . وقد كسب منه كثيراً من التهاني الحارة . كان ثمة منطاد يحوم فوق بحيرة طفولته ، التي كانت أمواجها مظلمة ، حتى ليخيل للناظر اليها أنها سوداء ، ثم حدق النظر فيه تحديقاً أفضل ، فلم ير المنطاد ، بل رأى ، بدلاً منه ، سمكة عملاقة من المرجان . لقد برزت من بين الأمواج وحلّقت في السماء على هواها . لم تكن وحدها . فقد برزت ، من كل الجوانب ، سمكات أُخر ، من بين الأمواج وشرعت تحلق بدورها .

صرخ جيمبي عندما استيقظ :

- « أوه ! ما أضخم هذا المرجان ! » .

هنأه الناس جميعاً .

- « هذه علامة أبهة . هذا حلم فيه هاجس داخلي ! هذا يعني أنك سوف تذهب بعيداً » .

كانت ياغوي ، في اليوم السابق لهذا الحلم ، قد قدمت له كتاباً مصوراً . وكان بين صوره منطاد . لم يصدق جيمبي وجود المنطاد على الرغم من أن الناس كلهم يعلمون بوجوده آنذاك . من المحتمل أن الطائرات الكبيرة قد أزاحت المناطيد وحلت محلها الآن . كان هذا الحلم الذي يدور حول المنطاد والمرجان يعود إلى الماضي ، عند جيمبي . ولقد كان يريد أن يرى فيه نبوءة بزواجه من ياغوي لا نبوءة بالنجاح الاجتماعي . حتى هذا النجاح الاجتماعي لم يتحقق . إذ أن

جيمبي لم يتمكن من الاحتفاظ بوظيفته في التدريس في المدرسة الثانوية ، ولم يحصل على أي ترفيع حين كان على رأس عمله . وعلى عكس سمكة المرجان الرائعة التي رآها في حلمه ، ككانت تنقصه القوة التي يحتاج اليها من أجل التماسك ، ومن أجل التسامي فوق زملائه أيضاً لكي يتقدم الصفوف . وأكثر من ذلك ، إنه معرض لأن يزول ، في يوم أو في آخر ، ويضيع في ظلمة الأمواج . وإن شعلة حبه الممنوع لهيزاكو بدأت تخبو سريعاً ، ولم يبق له من تلك السعادة الموقتة سوى هذا الوهن والانحطاط . وكما توقع جيمبي ، أفشت أوندا السر . واستحال السر إلى إبليس متعطش للانتقام . لقد أتلف هذا الاتهام ، الذي وجهته إليه تلك الفتاة ، كل شيء .

لقد كان يسعى جاهداً ، منذ ذلك اليوم الذي قرأ فيه في الصف فوكوزاوا ، في عدم النظر إلى هيزاكو . لكن عينيه كانتا تنتقلان ، رغماً عنه ، إلى أوندا . فيشعر بالفزع . وفي ذات يوم أيضاً ، أخذ معه أوندا هذه الى زاوية في باحة المدرسة ، وحاول ، نصف متوسل ونصف مهدد ، أن يقنعها بعدم إفشاء سرهما . بيد أن الحقد الذي كانت تكنّه تلك الفتاة له كان ينبثق من حدس حاد بالشر أكثر من انبثاقه من مجرد إحساس بالعدالة . لقد أثار جيمبي كل ما هو رفيع في الحب ، لكن الحكم كان قاطعاً :

ـ « أنت إنسان خسيس ! » .

ـ « ولكن . . . أنت الخسيسة ! هل يمكن أن يكون هناك أكثر جبناًمن انسان يخون السر ؟ ماذا تملكين في مكان القلب ؟ بزاقاً ينفث سمه ، عقرباً ، أم أربعة وأربعين ؟

ـ « لم أقل أي شيء لأي إنسان كان » .

ومع ذلك ، بعد مضي وقت ليس بالطويل ، أنذرت أوندا مدير المدرسة ووالد هيزاكو ، بالرسائل . كانت الرسائل مفغلة من التوقيع وتنتهي بالعبارة التالية : « من أم أربعة وأربعين » .

لم يكن جيمبي ، بعد ذلك ، قادراً على رؤ ية هيزاكو إلا سراً في مكان كانت هي تختاره . كان البيت ، الذي اشتراه أبوها بعد الحرب ، في رقعة من الضواحي آنذاك . أما البيت ، الذي كان أهلها يسكنون فيه قبلاً ، في الأحياء الغربية

الجميلة ، فقد التهمه حريق ، في أثناء الحرب ، ولم يبق منه إلا جدار نصف متداع . كانت الفتاة تحب مقابلة جيمبي في ذلك المكان . وفي الجوار ، كان أعظم جانب من الحي عامراً بمساكن من أحجام متباينة ، وكانت الأراضي محروقة منبوذة ، لكنها ما تلبث أن تصبح ، يوماً بعد يوم ، أكثر ندرة . ففقدت الخرائب طابعها الأول في العداء والحزن ، وأخذت تؤلف ، بكل تأكيد ، نوعاً من الملاذ . وكانت الأعشاب ، التي تنمو هناك ، عالية تستطيع ستر العاشقين . كانت هيزاكو ، الطالبة الثانوية البسيطة ، تحس بشيء من الثقة في وجودها في ذلك المكان الذي أمضت فيه طفولتها .

كان يصعب عليها أن تكتب الى جيمبي . كما أن جيمبي نفسه لم يكن يستطيع أيضاً أن يرسل اليها رسالة أو خبراً من أي نوع كان ، كما أنه لم يكن قادراً على الاتصال الهاتفي بها . ويبدو أن كل وسيلة من وسائل الاتصال حُرمت عليهما . لهذا كان جيمبي يخطط بالطباشير رسائله على الوجه الداخلي من الجدار المتهدم . وكانت هيزاكو تأتي لتأخذ علماً بها . كانت تلك الكتابات قائمة ، ولا ريب أنها موجودة في أسفل الجدار ، إلا أن الأعشاب البرية قد أفسدتها بتطفلها عليها . من المؤكد أنها لم تكن مكاتيب معقدة ، بل كانت تشمل تحديد يوم الموعد وساعته . هذا هو كل شيء . لكن الجدار كان يقوم بمهمته السرية على خير وجه دائماً . وفي بعض الأحيان كانت هيزاكو هي التي تترك عليه رسالة لجيمبي . ليس لأنها لم تتمكن من تحديد تاريخ الموعد برسالة أو ببرقية ، بل لأنه كان يتحتم على جيمبي ، بطبيعة الحال ، أن يحدد على الجدار تلك الأيام وتلك الساعات ، ثم عليه أن يعود ، بعد ذلك ، لكي يتأكد من أن هيزاكو قد سجلت موافقتها الخاصة . ولما كانت الفتاة خاضعة لمراقبة شديدة فقد كان من المستحيل عليها أن تخرج مساء .

كان جيمبي منطلقاً لتلبية نداء من فتاته عندما اكتشف ، من داخل سيارة الأجرة ، انقسام العالم إلى وردي شاحب ومائل إلى الزرقة . كانت هيزاكو تنتظره ، غارقة في العشب ، عند أسفل الجدار . وقد قال لها جيمبي ذات يوم :

ـ « اذا صدقت ارتفاع هذا الجدار فإن أباك لا بد أن يكون إنساناً قاسياً قليل الرضى . وإني لأتخيله ، حين أراد تتويج هذا الجدار كله ، فقد غرس في أعلاه قطعاً من الزجاج ومسامير جعل رؤوسها المدببة إلى أعلى » .

كانت البيوت ، التي بنيت حديثاً حولها ، على مستوى واحد ، ولم يكن سكانها قادرين على رؤ ية ما وراء الجدران . ولم يكن يوجد ، في الجوار ، إلا واحد من تلك البيوت ، بني على الطراز الغربي ، من طابق واحد . لكنه ظل منخفضاً بسبب المفهومات الجديدة في الهندسة ، أو ربما بسبب آخر ، بل إننا إذا انحنينا من إحدى نوافذه العلوية غاب عن رؤ يتنا ثلث الحديقة . إن هيزاكو تعرف ذلك ، لذا فهي تحب البقاء قرب ذلك الجدار . ولما كانت البوابة من الخشب فقد أخذها الحريق . ولما كانت الأرض غير معروضة للبيع ، فلن يغامر أحد من الفضوليين بالمجيء إليها وحشر أنفه . وحتى حوالي الساعة الثالثة ، بعد الظهر ، كانت مكاناً حالماً للمواعيد السرية .

ـ « آه ! هل خرجت من المدرسة ؟ » .

وضع جيمبي يده على رأس هيزاكو وجلس أمامها مقرفصاً . تناول بين راحتيه وجهها الشاحب وجذبها إليه .

ـ « ليس لدينا وقت كثير . إنهم يدققون في الساعة التي أترك فيها المدرسة » .

ـ « نعم . أعرف ذلك » .

ـ « حاولت أن أحدثهم عن دروس خصوصية حول (وقائع هيكي) لكنهم رفضوا » .

ـ « آه ؟ وهل كنت تنتظرينني منذ وقت طويل ؟ ألم تتنمَّلْ ساقاك ؟ » .

أخذها فوق ركبتيه ، وهو يتحدث ، فشعرت ببعض الحياء من ضوء النهار ، وتملصت منه بحركة انسياب رشيقة :

ـ « خذ . . . » .

ـ « ما هذا ؟ مال ؟ من أين حصلت عليه ؟ » .

ـ « إنه لك . لقد سرقته . . . » .

كانت عيناها تلتمعان . أضافت :

ـ « سبعة وعشرون ألف (ين) . . . » .

ـ « هل هو من أبيك ؟ » .

ـ « أخذته من غرفة أمي » .

ـ « لكنني لا أريده ! أسرعي في إعادته قبل أن يكتشفوا فقدانه » .

ـ « هذا لا يهمني . ولو أنهم فاجأوني لأشعلت النار في البيت ! » .

- « أنت مجنونة تماماً ! منذا الذي يتسلى بإحراق بيت يقدر ثمنه بعشرة ملايين في سبيل سبعة وعشرين ألف (ين) ؟ » .
- « هذا المبلغ . . . أعتقد أن أمي تخفيه عن أبي . إذن فهي لن تستطيع أن تجعل منه مأساة . وقبل أن أسرقه فكرت طويلاً . وأنت تعرف . لكن ما يبعث في نفسي الخوف فعلاً هو أن أعيده إلى مكانه . سوف أرتجف كثيراً وسوف يكتشفون أمري وينهالون عليّ بالضرب » .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تقدم النقود إلى جيمبي . ولم يكن جيمبي يحرضها على ذلك . لكن الفتاة كانت تتصرف من تلقاء ذاتها وبدافع من داخلها .

- « أصغي إليّ . لست بحاجة . إن أحد أصدقائي في الجامعة يعمل أمين سر رئيس إحدى الشركات واسمه آريتا . وأنا . . . بفضل هذا الصديق . . . أكلف ، من وقت لآخر ، بكتابة خطابات سيده » .

- « اريتا ؟ ما هو اسمه الآخر ؟ » .
- « آتوجي آريتا . . . رجل طاعن في السن » .
- « أوه ! يا إلهي ! إنه هو نفسه الذي يرئس مجلس الإدارة في المدرسة التي أذهب اليها الآن . . . وعن طريقة تمكن والدي من إدخالي فيها ! » .

- « لا . . . ؟ » .
- « إذن . . . الخطابات التي يلقيها المدير في المدرسة . . . أنت الذي تكتبها . . . وأنا لا أعرف شيئاً من ذلك ! » .
- « هذه هي الحياة دائماً » .
- « صحيح . نعم . أحياناً . . . حين يكون القمر في تمامه أقول في نفسي إنك أيضاً مستغرق مثلي في النظر اليه . وإذا اندلعت عاصفة أتساءل : ماذا يفعل في شقته يا ترى ؟ » .

- « إن آريتا المذكور ، حسب ما علمت من صديقي ، يشكو من مرض الخوف إلى حد سخيف . فلقد توسل إليّ صديقي سكرتيره أن أتجنب ما استطعت كلمات من نوع « الزوجة » أو « الزواج » في تحرير أعمالي الكتابية المملة . ولما كان موضوع الكتابة يتعلق دائماً بمدرسة ثانوية للبنات فقد كان عليه أن ينتظر كل شيء

مني ، بطبيعة الحال . ولكن ألم يقع هذا السيد آريتا في أزمة في أثناء إلقائه إحدى الخطب ؟ » .

ـ « لم ألاحظ ذلك أبداً . لا . . . » .

فقال جيمبي وهو يحك رأسه :
ـ « طبعاً . أمام الجمهور » .
ـ « ماذا تقصد بكلمة : أزمة ؟ » .
ـ « أحوال عُصابية . يوجد منها أنواع كثيرة . وربما كنا ، أنت وأنا ، نعاني منها مثلاً . هل تريدين أن أريك شيئاً منها ؟ » .

تناول بين يديه نهدي هيزاكو وأغلق عينيه ، انبثقت في ذهنه حينئذ صورة ، من أعماق طفولته ، هي صورة حقل قمح . وعلى الدرب ، وراء هذا الحقل ، كانت امرأة تمتطي صهوة جواد من جياد الحراثة . ولم يكن عليه سرج . وكانت المرأة تلفّ ، حول عنقها ، قطعة قماش بيضاء عقدتها من الأمام .

تمتمت هيزاكو بشغف :
ـ « هيا . اخنقني . إنني أرفض العودة إلى الدار » .
لاحظ جيمبي مذعوراً أن يده كانت تضغط على العنق . رفع يده الثانية كأنه يريد قياس العنق بها . كان العنق ينساب ناعماً رقيقاً بين أصابعه المتشابكة . دسّ جيمبي رزمة الأوراق النقدية في قميص الفتاة . توتر القسم الأعلى من جسمها وقامت بحركة تراجع إلى الوراء .

ـ « كوني لطيفة . أعيدي هذا المال الى بيتك . سوف ينتهي الأمر بواحد منا إلى أن يقترف جريمة حقيقية اذا بقينا على هذا النوع من الحماقات . ألم تعاملني أوندا معاملة المجرم حين أفشت السر ؟ إن هذا الانسان المزعج ، هذا الكاذب المريض يمكن أن يشتبه به ، بكل تأكيد ، ببعض الأعمال الشريرة الشنيعة . . . أليس هذا ما كانت تكتبه في رسائلها ؟ هل رأيتها مرة أخرى مؤخراً ؟ » .
ـ « لا . . . كما أنها لم تكتب لي أبداً . بنت مثلها . . . لا أريد أن أعرف عنها أي شيء . . . على كل حال » .

ظل جيمبي صامتاً فترة من الزمن . مدّت هيزاكو على الأرض قطعة مربعة

من (النايلون) . لكن البرد ظل قارساً ، رغم هذه الحماية . وكانت رائحة حادة تصدر من العشب الطري لتنتشر حول الحبيبين .

ـ « سيدي . . . أريد أن تتبعني كما فعلت في المرة الماضية . دون أن ألحظ ذلك . ومثل المرة الماضية أيضاً ، عند مخرج المدرسة . إنها أكثر بعداً كما تعرف . . . هذه المدرسة الجديدة . . . » .

ـ « وفي مرة أخرى ، كنت قد بلغت بوابتك الفخمة ، وتظاهرت بأنك اكتشفت بأنني كنت أطاردك ؟ ونظرت إليّ بطرف عينك ، محمرة الوجه ، عبر الشبك ؟

ـ « لا ، لا . . . سوف أدخلك ، في هذه المرة ، فالبيت واسع جداً . لن يطردك أحد منه . بل إنني أستطيع أيضاً أن أخفيك في غرفتي الخاصة » .

شعر جيمبي بفرح محرق يتسرب اليه . وبعد ذلك بقليل ، نفذا هذا المشروع . بيد أن والدي هيزاكو ضبطا جيمبي .

ثم تكفلت السنون بإبعاده عن الفتاة ، وها هو يجد نفسه يتدحرج على الأسفلت حيث قذفته لطمة الطالب ، وهو ينادي يائساً « هيزاكو ! هيزاكو ! » . ولما رجع إلى داره وجد ركبتيه وكتفه مغطاة بالكدمات . لقد كان ارتفاع الربوة أعلى من ارتفاع جيمبي بمرتين .

وفي مساء اليوم التالي ، لم يستطع أن يمنع نفسه من محاولة رؤ ية المراهقة مرة أخرى ، فوق الشاطىء الذي تحف به أشجار الجنكة . فكر في أعماقه : كيف سببت لها كل هذا الضرر ، هي التي لم تلاحظ ، في براءتها ، حيلتي ومداورتي . . . ؟ هكذا نتحرق لرؤ ية تحليق الأوز البري . هكذا ننظر بعيداً إلى مجرى الزمن المبهر وهو يمضي . هل كان جيمبي يعرف إن كان سيعيش حتى الغد ؟ وحتى جمال تلك الفتاة لن يكون سرمدياً .

إن عراكه مع الطالب كان يجعل من المستحيل عليه أن يتسكع في جوانب الشاطىء ، خشية أن يفتضح أمره ، على كل حال ، فكيف به إذا تجول فوق الربوة التي كانت مكان اللقاء المفضل عند الشابين ، كما يبدو ؟ لهذا قرر أن يضطجع في الحفرة ، بين الرصيف الذي زرعت فيه أشجار الجنكة وبين الملكية القديمة النبيلة . واذا صدف أن استدعاه أحد رجال الشرطة فإنه يستطيع حينذاك

أن يزعم دائماً بأنه قد شرب : خطوة مترنحة ، وإنسان حقير شرس ألقاه أرضاً قبل قليل . نعم . كان السكر ، إلى ذلك التاريخ ، يشكل أفضل وسيلة للدفاع . لذا فقد تعمد جيمبي ، قبل أن يخرج من داره ، أن يتناول بضع جرعات من الكحول لكي يضبط حركاته .

لقد لاحظ عمق الحفرة في اليوم السابق . وعندما نزل فيها انتبه إلى أنها واسعة جداً على وجه الخصوص . كانت جوانبها وأرضيتها قد رصفت بالحجارة المتينة . وكان العشب قد نبت بين الأحجار ، كما أن بساطاً من الأوراق الميتة ، التي يعود تاريخها إلى الخريف الفائت ، قد تفتتت في أرضيتها . فاذا التصق جيمبي بالمنحدر القريب من الرصيف ، ضمن أن يختفي عن أنظار المارة ، لأن الشاطىء كان مستقيماً . لكن قضاء عشرين دقيقة على هذا الوضع كان كافياً لأن يمنحه الرغبة في أن يعضّ الحجارة . واكتشف وردة بنفسج متفتحة في فجوة صغيرة . زحف على ركبتيه ، وفتح فمه ، وقطفها بأسنانه ، ثم أكلها . وجد صعوبة في ابتلاعها . وهزته عبرة على الرغم من الجهود التي بذلها لكي يهدىء من نفسه .

برزت الفتاة وكلبها في أسفل الشاطىء . تشبث جيمبي بالحاجز الحجري ، والتصق بجانبه الداخلي ، ورفع رأسه بحذر شديد . كانت يداه ترتعشان ارتعاشاً عنيفاً فخيل اليه أن الجدار الصغير سوف يتداعى من جراء ذلك . بل إن خفقان قلبه انتقل الى الحجارة أيضاً .

كانت الفتاة ترتدي ثيابها الصوفية التي كانت ترتديها أمس إلا البنطال فقد غيرته بتنورة ذات لون أحمر غامق . أما حذاؤها فقد كان ملائماً . كانت البقعة البيضاء والحمراء تتضح شيئاً فشيئاً مع خضرة الأشجار الرطبة . وبما أن الفتاة مرت فوق جيمبي تماماً فإن يدها كانت على ارتفاع عينيه . كانت بشرة قبضتها البيضاء تزداد بياضاً عند المرفق . رفع جيمبي عينيه ، ثم اضطر إلى الانحراف قليلاً لمتابعتها بنظره ، وحبس في صدره صرخة إعجاب ، وقد عانى كثيراً .

ثم لمح الطالب وقد وقف ينتظرها في مكان الأمس تماماً . ومن مخبئه ، الذي كان في منتصف الشاطىء تماماً ، رأى الشابين وهما يقومان بالنزهة ،وقد ستر العشب سيقانهما حتى الركبة . تسكعا عبر الربوة ثم غابا عن الأنظار في الجهة

المقابلة . انتظر جيمبي عبثاً ، حتى غروب الشمس ، عودة الفتاة . لا ريب أن الشاب حدثها عن فرد مشبوه فقررا تفادي هذه الأماكن النائية .

عاد جيمبي ، في مناسبات عديدة ، وتاه على طول أشجار الجنكة . وأمضى ساعات طوالاً مضطجعاً على عشب الرابية الصغيرة ، إلا أنه لم ير الفتاة أبداً . وفي ذات مساء دفعه شبح الفتاة دفعاً نحو الهضبة . كانت البراعم قد تحولت فجأة إلى لون أخضر وإلى أوراق حيّة . كان الظل الذي يسقطه القمر على قارعة الطريق ، وكتلة الأشجار السوداء المهددة ، يخيفان جيمبي . ذكر مساء آخر ، في قرية طفولته ، على شاطىء بحر اليابان ، إذ أفزعته الأمواج السوداء ، على حين غرة ، فانطلق يجري بكل قواه حتى وصل الى بيته . سمعت أذناه مواء . جمد في مكانه وأخذ يبحث في أعماق الحفرة . ظلت القطط الصغيرة خفية لا ترى ، لكنه استطاع أن يميز أطراف علبة ، ولم يتمكن من معرفة ما يقرقر في باطنها .

« من المؤكد أن هذا هو المكان الملائم جداً الذي يمكن للمرء أن يحلم فيه للتخلص من عبء ثقيل » .

كانت تلك القطط الصغيرة، التي رأت النور تواً ، قد حشرت في العلبة وطرحت هناك . كم تستطيع أن تعيش بعد أن حكم عليها بالموت جوعاً ، رغم الدموع التي كانت تذرفها ؟ كان جيمبي يحاول أن يتقمص فيها ، ويقسر نفسه على الاصغاء الى موائها . ومع ذلك ، لم تظهر الفتاة ثانية فوق الهضبة .

قرأ في الصحيفة ، في بداية شهر حزيران ، عن حملة صيد الحباحب على شاطىء المستنقع الاصطناعي ، غير بعيد عن الهضبة . كان المكان هو نفسه مستوى الماء الذي كان يؤجر الزوارق . لسوف تأتي الفتاة حتماً . . . لم يشك جيمبي في ذلك . إنها تسكن هنا ما دامت تقوم بالنزهة مع كلبها على الهضبة .

لقد كانت البحيرة ، قرب القرية ، مسقط رأس أم جيمبي ، مشهورة أيضاً بكثرة الحباحب فيها . وكان جيمبي يرافق أمه ، في أيام الصيد ، فيطلق سراح أسراه تحت (ناموسية) . كانت ياغوي تقلده . كان الفاصل بين غرفتيهما مفتوحاً دائماً ، لذا فقد كانا يختصمان حول من يملك أكبر كمية من الحباحب . بيد أن تلك الحباحب لم تكن تبقى في مكان ثابت ، لذا كانت عملية عدِّها صعبة .

ـ « إنك تغشّ ياجين ـ شان . إنك تغش دائماً ! » .

كانت تجلس ، وتهز يدها باتجاهه ، ثم تضرب الناموسية التي تتموج تحت ضرباتها . فتتطاير الحباحب في كل جانب . لم تكن ضربات ياغوي تلقى معارضة ، فتزداد ضراوة . كانت ركبتاها تنتفضان مع حركاتها . كانت ترتدي ثوباً يابانياً قصيراً جداً ذا كمين ضيقين . كان الثوب يرتفع إلى ما فوق الركبتين . وكان ساقاها يمتدان ، شيئاً فشيئاً ، نحو الأمام ، كما أن أسفل الناموسية بدأ يتغضن ويتموج ، كأنه كان يريد أن يمسك بتلابيب جيمبي . لقد أصبحت ياغوي شبحاً يرتدي ناموسية زرقاء .

ـ « إنك تملكين أكثر مني الآن يا ياغوي ـ شان . انظري خلفك . وسوف ترين » .

ـ « طبعاً . عندي منها أكثر منك » .

كانت اهتزازات الناموسية تثير أنوار الحباحب حتى ليظن أنها أكثر عدداً مما هي عليه في الواقع .

كان جيمبي لا يزال يرى ، في رأسه ، ثوب ياغوي الياباني المنقوش بصلبان كبيرة مختلطة ، ولكن ماذا كانت تفعل أم جيمبي ، مقابل ذلك ، علماً بأنها كانت تنام في السرير ذاته ؟ ألم تكن تحتج إزاء الفوضى التي تثيرها البنية الصغيرة ؟ وأم هذه البنيّة الصغيرة بالأحرى ! كانت تنام بالقرب منها ، أفلم توبخها ؟ وكان هناك أيضاً أخو ياغوي الصغير الذي كان ينام هناك ، هو الآخر ، بكل تأكيد . مع ذلك ، لم يكن جيمبي قد رأى أحداً سوى ياغوي وحدها .

ومنذ فترة وجيزة ، أخذت تعود إليه ، في أوقات متناوبة ، رؤ ية البرق فوق البحيرة . كان سطحها يضطرم ، على حين غرة ، ولا يدع على الجرف إلا تألق الحباحب . ربما كان وجودها راجعاً إلى الهلوسة . مع ذلك ، كان البرق يكثر في الصيف ، فصل الحباحب . كان جيمبي يتساءل فيما اذا كان لم يضف هذه الحباحب إلى رؤ يته ، في نهاية المطاف . لكن مخيلته الخصبة نفسها لم تكن لتبلغ حداً يجعله قادراً على رؤ ية لسان من النار ، في الحشرات المفروضة ، يرمز إلى روح أبيه الذي وجد ميتاً في البحيرة . على كل حال ، كانت الظلمة ، التي تعقب البرق ، بصورة عنيفة ، تبعث في نفسه الطمأنينة بصورة أفضل . كان جيمبي يرتعد كلما ظهر هذا الضياء الموقت وأعلن ، في قلب الليل ، عن اندفاع الماء بلا

حدود . كأن الطبيعة كانت قد جرّدت قواها العميقة لفترة قصيرة ، وكأن جيمبي كان يستمع إلى خفقان الزمن . وعندما كان البرق يلطم البحيرة ، في كل امتدادها ، كان جيمبي لا يتمكن من أن يرى فيها إلا أثراً من آثار تصوراته الخداعة الخاصة . كان يفكر أن كل ذلك لا يمكن أن يحدث في الواقع أبداً . ومع ذلك ، ربما كان يفكر أيضاً ، أنه لو حدث ومزق السماء برق جبار وصعقه ، هو جيمبي ، فإن لمعانه القصير سوف يبهر كل المكان المحيط به . كان هذا ما عبر عنه صراحة عندما حاول خنق هيزاكو أول مرة ، هيزاكو الساذجة التي توترت بين يديه .

ثم اندلعت الصاعقة ، من هذا التماسّ الأول الذي استولى على كيان الفتاة كله لكي يبدلها تبديلاً ، وحاصرت العاصفة جيمبي بمشاعر الذهول . حثته هيزاكو على الانسياب إلى غرفتها في بيت ذويها خلسة .

- « فعلاً . . . إنه بيت كبير . وإنني لأتساءل كيف يمكنني أن أخرج منه ، من جديد ، دون أن يراني أحد » .

- « سوف أريك . بل إنك تستطيع المرور من النافذة » .

- « ولكننا . . . في الطابق . أليس كذلك ؟ » .

قال جيمبي هذا الكلام مع حركة تقهقر إلى الوراء .

- « سوف أصنع لك حبلاً بزنانيري بعد أن أربطها الواحد بالآخر . . . » .

- « والكلب ؟ أليس عندكم كلب ؟ أنا لا أميل الى الكلاب كما تعلمين ! » .

- « لا . . . لا . . . ليس عندنا كلاب » .

إن هيزاكو ، التي أدارت عينيها اللامعتينِ عن جيمبي ، لم تكن تنظر إلى المسألة هذه النظرة .

- « لا نستطيع أن نتزوج . أليس كذلك ؟ إذن . . . كنت أريد حتماً أن نكون في غرفتي ، ولو مرة واحدة . أما « سرير الحشائش » فأنا لا أطيقه أبداً ، أبداً . . . هل تفهمني ؟ » .

- « سرير الحشائش . . . بكل تأكيد . . . ! يقال هذا أيضاً بالمعنى الحرفي . . . لكنه يعني اليوم ، في معظم الأحيان ، العالم الآخر ، صمت القبور » .

- « هل هذا صحيح ؟ » .

لم تكن الفتاة تصغي إليه إلا بأذن واحدة .

- « الآن . . . أنا أعرف أنهم طردوني وأنني لن أعلم الأدب أبداً . . . هذا لا يهم . ولكن . . . » .

الواقع أن هذا الأمر يهمه كثيراً . إنه لم يكن يطيق فكرة شطبه من الوظيفة ، فكرة أنه لن يعلم . أي عالم شرس ، هذا العالم الذي نعيش فيه ! شعر جيمبي الذي سحقه الترف الباذخ ، في غرفة تلميذته القديمة ، بأنه لا يرى في نفسه إلا مجرماً تطارده العدالة . لقد كفّ عن أن يكون ذلك الرجل الذي كان يلاحق هيزاكو من المدرسة الى بيتها . وفي هذه المرة ، بكل تأكيد ، ما دامت الفتاة لا تفعل شيئاً سوى أن تتصنع التجاهل بأنه كان يطاردها ، وأنها استسلمت اليه طائعة . فلم تعد القضية عندهما إلا لعبة ، أو وهماً مسبقاً . ومهما يكن من أمر ، فإن اقتراح الفتاة غمر جيمبي بالسعادة .

تناولت يده وضغطت عليها :

- « أصغ إليّ . سوف تحل ساعة العشاء بعد قليل . وسوف تنتظرني . أليس كذلك ؟ » .

جذبها إليه . وقبلها . كانت الفتاة ترجو لو طالت تلك القبلة . فتركت نفسها بين ذراعيه . وعادت إليها الثقة التامة لأنه كان بجوارها يسندها .

- « ما الذي ستفعله في أثناء انتظاري ؟ » .
- « آه ! يا إلهي . . . أليس عندك أي شيء . . . مجموعة من الصور ؟ » .
- « لا ، ليس عندي أي شيء . . . لا مجموعة صور . . . . ولا دفتر مذكرات . . . » .
- « هذا صحيح . . . فأنت لم تسردي عليّ شيئاً من طفولتك » .
- « وما هي الفائدة التي ستجنيها من ذلك ؟ » .

غادرت الغرفة دون أن تمسح شفتيها . فتساءل جيمبي عما يمكن أن يكون عليه انطباع وجهها . عندما تجلس إلى المائدة ، بين والديها . اكتشف مغسلة صغيرة في نوع من التجويف محجوب بستارة . أدار الحنفية بعد أن اتخذ ألف احتياط . وغسل وجهه ويديه بكل هدوء . ونظف فمه . أما قدماه المشوهان فقد أراد أن يغسلهما . لكنه ، عندما نزع جواربه ، ووضع إحدى القدمين في الارتفاع

المناسب ، لم يقبل أن يغطسها في الحوض نفسه الذي كانت هيزاكو تغسل فيه وجهها . كذلك ، لا يمكن للغسل البسيط أن يجعل قدمين مثل قدميه مقبولتين . وفضلاً عن ذلك لقد تذكر شكلهما المشوّه .

كان يمكن أن يمرّ لقاؤهما بسلام لو لم تضع هيزاكو في رأسها أن تهيء له بعض الشطائر . بل إنها اندفعت في جرأتها إلى حد جعلها تحمل إليه ألواناً على طبق من الفضة مع القهوة وأشياء أخرى .

قرع الباب . فسألت هيزاكو بنبرة اتهام كأنها قد اتخذت قرارها النهائي قبل قليل :

- « هذه أنت يا أمي ؟ » .
- « نعم . . . أنا » .
- « لا تفتحي من فضلك . فعندي ضيف » .
- « ضيف ؟ من هو هذا الضيف ؟ » .

أجابت هيزاكو بصوت ضعيف وقاطع :
- « إنه أستاذي » .

وقف جيمبي وقد شعر بسعادة حقيقية . ولو كان يحمل سلاحاً لأطلق النار على الفتاة . قد تخترق الرصاصة صدرها ، ثم تخترق الباب ، وتصيب الأم بدورها . وسوف تنهار هيزاكو نحو جيمبي وتسقط الأم في الجهة الأخرى . سوف يفصل الباب بينهما وسوف تقعان كلتاهما ، ولكن في اتجاهين متقابلين . إلا أن هيزاكو ، في أثناء سقوطها ، سوف تستدير ، برشاقة يعجز عنها الوصف ، وتأتي لتحتضن ركبتي جيمبي . وتتدفق موجة من الدم من جرحها ، فتلطخ ساقي جيمبي ، ثم تسيل حتى قدميه ، اللتين تصلبت أَدَمَتُهما واسودت ، حينئذ تصبح الأدمة لطيفة كأنها تويجة وردة . كما أن النسج الموجودة في أخمص القدم سوف ترى تجعيداتها وقد زالت ، وأصبحت ملساء كالماس . وأصابع رجليه الطويلة المعقدة الملتوية المشوهة التي تشبه أصابع القرد ، سوف تغتسل بدم هيزاكو وتخرج منه فوراً كاملة ، كأنها أصابع عارضة أزياء . ولكن كيف يمكن أن ينزف الدم بمثل هذه الغزارة . . . ؟ طرح جيمبي على نفسه هذا السؤال فجأة . لكنه لاحظ أن الدم كان يتدفق أيضاً من جرح في صدره . أحس أن قواه بدأت تخور ،

وأنه قد أحيط بغيمة خماسية الألوان يتوسطها (بوذا) الذي جاء ليستقبل أرواح الموتى . لكن هذه النشوة لم تدم إلا برهة قصيرة .

ـ « إن دم ابنتي ممزوج بالدهان : وهو الدهان نفسه الذي حملته اليك في المدرسة ، لكي تعالج الفطور ! » ..

عندما سمع جيمبي صوت والد هيزاكو توتر واستعد للدفاع . كانت أذناه تخدعانه . وقد خدعتاه طويلاً . ولما عاد إلى الواقع ، الى الحاضر ، لم ير أمامه إلا شخصَ هيزاكو ، منتصباً ، يواجه ، بكل هدوء ، ما يوجد خلف الباب . زال خوف جيمبي عندئذ لم تسمع أي ضجة وراء الباب . ومع ذلك ، لم يمنع الباب جيمبي من تمييز الأم التي كانت ترتعش تحت وطأة نظرات ابنتها : وكأن فراخ الطير جرّدت كبارها ونتفت ريشها . سمع وقع خطوات متقهقرة في الدهليز . تقدمت هيزاكو بعزم وتصميم ، وأدارت المفتاح في القفل ، ووضعت يدها على أكرة الباب ، ثم وقفت مواجهة جيمبي . شعرت ببعض الانحطاط ، فأسندت ظهرها على الباب ، وانفجرت باكية .

وكان أمراً لا بد منه إذ تبعت خطوات الأب المسعورة خطوات الأم . اهتزت أكرة الباب . ثم سمع صوتاً يقول :

ـ « افتحي فوراً . هل تسمعينني ؟ هيزاكو . افتحي ! » .

قال جيمبي :

ـ « حسناً . سأتحدث معه .

ـ « لا . . . لا أريد ذلك ! » .

ـ « ولكن . . . لماذا ؟ هل تعتقدين أن لنا خياراً غير ذلك ؟ » .

ـ « لا أريد أن تراه » .

ـ « لن نتخاصم . وأنت تعرفين . وليس عندي مسدس ولا سواه » .

ـ « لا أريد أن تعرفه . اهرب من النافذة ! » .

ـ « من النافذة ؟ ولِمَ لا ؟ أنا الذي أملك قدمي قرد ؟ » .

ـ « لكن هذا خطر مع الحذاء » .

ـ « لقد نزعته قبل قليل » .

أخرجت الفتاة ، من خزانة صغيرة ، حزامين أو ثلاثة ، وربطتها ببعضها .

ولم يكن الأب ، وراء الباب ، هادىء الأعصاب .

ـ « لحظة . أرجوك . سأفتح فوراً . لا تخشى شيئاً . وليس في نيتنا الانتحار » .

ـ « كيف ؟ ولكن . . . ما هذه الحماقات ؟ » .

كان يبدو قلقاً . ومع ذلك هدأ اللغط بضع ثوان .

لفّت هيزاكو ، حول رسغيها ، أحد طري الحبل الصناعي الذي كان يتدلّى من النافذة ، وبذلت كل ما في وسعها ، وهي تبكي ، لكي تقاوم ثقل جيمبي . مسّ أنف جيمبي أصابع الفتاة عند هبوطه هبوطاً مرناً . لقد كان ، في واقع الأمر ، يتمنى لو أنه يطبع قبلة على شفتيها ، لكنه كان ، في ذلك الوقت ، ينظر إلى الأرض ، ولم يمسّها إلا بأنفه . كان يتمنى أيضاً لو أنه طبع على وجه هيزاكو قبلة امتنان ، قبلة وداع . لكن الفتاة كانت متوترة ، بسبب الجهد الذي كانت تبذله ، وقد انحنت الى الامام ، وأسندت ركبتيها إلى الجدار . وظل جيمبي معلقاً في الفضاء بعيداً عنها لفترة من الزمن . وعندما وصل إلى الأرض ، هزّ الأحزمة مرتين معبراً فيهما عن نجاح تعاونهما الحنون . كانت الهزة الثانية قد ضاعت بسبب ضعف نقطة الارتكاز ، مما أدى إلى أن يسقط حبل القماش الخفيف كله من الغرفة المضاءة ، وهو يدور .

ـ « هل هذا صحيح ؟ أنت تقدمينه لي ؟ سوف أحتفظ به دائماً ! » .

أطلق جيمبي ساقيه للريح عبر الحديقة . وكان ، في أثناء جريه ، منهمكاً بلف الأحزمة حول ذراعه . ألقى نظرة سريعة إلى الوراء فرأى هيزاكو وشبحاً آخر ، هو شبح أبيها ، في الظاهر ، قد رسما في إطار النافذة . كان الرجل ، على ما يبدو ، غير قادر على رفع صوته . تسلق جيمبي البوابة المزخرفة كما يفعل القرد في الواقع .

هل انتهى الأمر بهيزاكو الى الزواج بعد كل ما جرى ؟

لم يرها جيمبي إلا مرة واحدة . من المؤكد أنه عاد ، مرات ومرات ، إلى مكان لقائهما الغابر : فلم يجد سوى بساط العشب على حاله كما باركته هيزاكو . لكنه لم يكتشف لها أي أثر في تلك الخرائب والحشائش البرية . أبداً . وحتى على السطح الداخلي لذلك الجدار الذي كان مبنياً من الاسمنت المسلح لم يعثر على

رسالة منها. وظل يعود الى ذلك المكان دون أن يصيبه التعب. حتى في الشتاء عندما تختفي النباتات الميتة تحت الثلج . وفي ذات يوم من أيام الربيع ، كانت هيزاكو هناك . لعلها جاءت استجابة لرجائه اليائس . لقد وجدها في وسط الأعشاب الجديدة .

آه ! لكن نوبوكو أوندا كانت موجودة معها . خفق قلب جيمبي . وظن ، في بادىء الأمر ، أن هيزاكو كانت أيضاً تأتي إلى ذلك المكان ، من وقت إلى آخر ، بحثاً عنه . ولعل الصدفة وحدها هي التي كات تحول بينهما وبين اللقاء . لكن بدا له أن الفتاة أصيبت بدهشة شديدة عند رؤ يته ففهم أنها كانت على موعد مع أوندا . نعم ، أوندا النمّامة ، في المكان نفسه الذي شهد حبهما ، هو وهيزاكو ، وكانا يجتمعان فيه سراً . كيف أمكن أن يحدث ذلك ؟ على كل حال ، عرف جيمبي أن عليه أن يزن كلماته .

تنهدت هيزاكو :

ـ « نعم . . . يا سيد ! » .

ـ « سيد ! » .

لفظت أوندا الكلمة ذاتها ، لكن مع شيء من الفظاظة ، ولعلها كانت تريد السيطرة على رفيقتها .

سأل جيمبي مشيراً إلى أوندا بحركة من ذقنه :

ـ « لا زلت تصرين على مرافقة هذا النوع من الأشخاص يا آنسة تاماكي . . . ؟ » .

كانت الفتاتان جالستين على مربع من النيلون . ركزت أوندا نظرها على جيمبي ثم أعلنت :

ـ « لقد حصلت هيزاكو اليوم على شهادتها يا سيد موموي ! » .

ـ « آه ! نعم . توزيع الشهادات . هه ! » .

لقد قال أكثر مما وعد نفسه بقوله .

بدأت هيزاكو بنبرة شاكية :

ـ « لم أضع قدميّ في المدرسة أبداً منذ . . . »

ـ « نعم . . . أعرف » .

مسّت كلمات الفتاة شفاف قلبه . ومع ذلك بدرت من فمه ملاحظة غير منتظرة ، ربما كان الدافع اليها حقده العارم إزاء أوندا عدوته اللدود ، أو يقظة الاستاذ الذي كانه في فترة مضت :

ـ « ومع ذلك نلت شهادتك . . . » .

فأجابت أوندا :
ـ « طبعاً ! ولقد تحدث أيضاً رئيس مجلس الادارة . . . » .

كان المرء يستطيع أن يتساءل عمّا إذا كانت نيتها حسنة أو سيئة حيال هيزاكو .

ـ « أصغي إليّ يا أوندا . أنت عبقرية صغيرة . موافق . ولكن . . . في هذه اللحظة . . . اسكتي » .

التفت نحو هيزاكو :
ـ « هل ألقى رئيسكم هذا خطاب تهنئة ؟ » .
ـ « نعم » .
ـ « أنت تعلمين بأنني لا أكتب نصوص العجوز آريتا . لا ريب أن نبرة كلامه أصبحت مغايرة اليومَ » .

ـ « نعم . لقد كانت خطبته قصيرة » .
فقاطعتها أوندا :
ـ « ولكن عمّا تتحدثان ؟ أليس عندكما فعلاً . . . شيء آخر تقولانه بعد أن التقيتما الآن ؟ » .

ـ « عندنا ملايين الأشياء لكي نقولها . . . لو تركتنا وحيدين ! إن ما يكلفنا لذلك ، من أَجل تعيين جاسوسة ، وجعلها كاتمة أسرار . . . هو شيء كثير . وقد دفع لنا لنعرف ذلك . اذا كان عندك ما تريدين قوله للآنسة تاماكي فقوليه وأسرعي . . . » .

ـ « أنا لست جاسوسة ! لم أفعل شيئاً سوى حماية الآنسة تاماكي من شخص مقزز . إنها استطاعت أن تبدل المدرسة بفضل رسالتي . وإذا كانت ، في وقت من الأوقات ، عاجزة عن متابعة الدروس ، فإنها ، مع ذلك ، تمكنت من التخلص من نفوذك السيء . هيزاكو عزيزة على قلبي وأنا مستعدة للموت في

سبيل الدفاع عنها ، على الرغم من أنك تقف ضدي . أما هي . . . فأنا واثقة تمام الثقة ، من أنها لا تقابل آراءك إلا بالاشمئزاز » .

ـ « علينا أن ننظر جيداً . ماذا أستطيع أن أفعل من أجلك .أنصحك بالذهاب فوراً . أو أن النتيجة ستكون وبالاً ! » .

ـ لا ، لن أترك الآنسة تاماكي . موعدها معي أنا . وما عليك أنت إلا الذهاب ! » .

ـ « اذن . . . أنت ملاكها الحارس ؟ أم أنك وصيفة الشرف ؟ » .

ـ « أبداً أما أنت فإنك دنيء » .

ثم أشاحت بوجهها :

ـ « هيا لنعد يا هيزاكو . ودِّعي هذا الشخص السافل وداعاً أبدياً . وليفهم جيداً معنى الاشمئزازِ والاستياء الذي سببه لك !

ـ لقد قلت ، أنت ذاتك ، كان عندنا ما نقوله لبعضنا ، الآنسة تاماكي وأنا ، والواقع أننا لما نبدأ بعد . اذن . . .

اغربي ! » كان يتكلم ساخراً وهو يداعب رأسها .

صرخت الفتاة :

ـ « هذه دناءة ! » .

ـ في هذه المناسبة ! متى غسلت شعرك لآخر مرة ؟ كان ينبغى عليك أن تنظفيه جيداً قبل أن تزكم رائحته الأنوف ! أما إذا تركته وشأنه فلن يغامر رجل واحد بمداعبته » .

أحست أوندا بالخجل من هذه الشتيمة .

ـ « إذن . هل قررت الانصراف ؟ كان يجب أن تحترسي . إن رجلاً منفراً مثلي لا يتردد في ضرب النساء . بالأقدام ، باللكمات ! » .

ـ « أنا لا أخشى هذه أو تلك ! » .

ـ « عظيم . . . إذن » .

أمسك بها جيمبي بقبضة يده وكأنه يريد أن يجرّها . ثم التفت نحو هيزاكو :

ـ « هل توافقين ؟ » .

ظن أنه قرأ في عينيها استحساناً . فشجعه ذلك . وشرع يجرّ أوندا خلفه .

ـ « ولكن . . . دعني وشأني ! أنت مجنون ! » .

تعثّرت . ومع ذلك حاولت أن تعضّ يده .

ـ « وبعد ؟ هل تنعمين على الأشخاص المنفرِّين بتقبيل أيديهم ؟ » .

صاحت الفتاة :

ـ « أريد أن أعضّك » .

لكنها لم تحاول تنفيذ تهديدها مرة أخرى .

انتصبت واقفة وكأنه كان يسيطر عليها قلق يدور حول هذا السؤال : « ماذا يمكن أن يقال في هذا الشأن ؟ » . اجتاز عتبة البوابة القديمة ، دون أن يترك طريدته ، وأشار إلى سيارة أجرة عابرة .

ـ « اسمع . هذه الفتاة هربت من بيت أهلها . ينتظرها أحد أفراد أسرتها في محطة (أوموري) . سوف يأخذها منك على عهدته . احملها إلى هناك بأسرع ما يمكن » .

قال هذه العبارة للسائق وهو يحمل جسم الفتاة بين ذراعيه . دفعها في سيارة الأجرة . وألقى قطعة ألف (ين) إلى السائق . فانطلقت السيارة تنهب الطريق نهباً .

عاد إلى خلف الجدار . فوجد هيزاكو جالسة على مربع القماش المصنوع من النايلون .

ـ « لقد حشرتها في سيارة أجرة وزعمت أنها هاربة . وقد كلفني ذلك ألف (ين) ! لكن هذا سوف يجعلها تعرف محطة (أوموري) . . . . » .

ـ « وسوف تكتب مرة أخرى إلى أهلي طلباً للثأر » .

ـ « هل تعتقدين ذلك ؟ التوقيع : أم أربعة وأربعين ؟ » .

ـ « هذا إلا إذا قررت ألا تكتب . إنها تتمنى لو تذهب إلى الجامعة . وتحاول إقناعي بالتسجيل فيها أيضاً . وقد كانت فكرتها أن تعطيني دروساً خاصة . ومقابل ذلك يدفع عنها والدي نفقات دراستها . إنها تنتمي إلى وسط فقير . . . » .

ـ « هل كان لقاؤكما هنا من أجل هذا الموضوع ؟ » .

ـ « نعم . لقد أمطرتني بالرسائل منذ شهر كانون الثاني الماضي . لم تكن في نيتي أن أستقبلها في بيتي. ولقد كتبت اليها أنني سوف أحضر حفلة توزيع

الشهادات ، كانت تنتظرني أمام المدرسة ، كما أنني كنت أريد المجيء إلى هذا المكان ، ولو مرة واحدة » .

- « أما أنا . . . فلم أحسب المرات التي جئت فيها إلى هذا المكان ، حتى في الأوقات التي كان الثلج فيها يغطي كل شيء . . . . » .

حكّت هيزاكو رأسها . وظهرت غمازتاها المحبوبتان . من كان يظن ، عند رؤيتها ، أن كل ما بينهما قد مضى ؟ حتى جيمبي نفسه كان يبحث عبثاً عن أقل أثر « لنفوذه الخبيث » .

تمتمت الفتاة :

« لقد خطر على بالي أنك لا بد أن تتردد على المكان » .

- « أنت تعرفين . . . أنه حتى حين يذوب الثلج في المدينة كلها . . . فإننا نجده هنا . ينبغي أن نقول إن هذا الجدار قوي الأثر . والناس الذين يجرفون الثلج يجب أن يدفعوه إلى هذا المكان . من هذه الجهة ، عند الباب ، سوف يصبح جبلاً حقيقياً . عندئذ أقول إنه عقبة جديدة أمام حبنا . كأن طفلاً صغيراً ملفوف تحت هذا الثلج كله » .

أخذت كلماته طابعاً سخيفاً ، غير متلاحم ، ثم سكت على حين غرة . مع ذلك ، كانت هيزاكو توافقه بعينين ساذجتين . أسرع جيمبي في تغيير الموضوع :

- « على هذا النحو ستذهبين وأوندا إلى الجامعة ؟ إلى أي كلية . . . ؟ » .

- « ما جدوى ذلك ؟ الجامعة للفتيات . . . » .

كان جوابها هذا يدل على أنها لم تكن تعلق أهمية على ذهابها إلى الجامعة .

- « إنني أحتفظ بالزنانير . هل تعرفين ؟ إنها غالية عندي . فهل أعطيتني إياها للذكرى ؟ » .

- « لم أكن أقدر على الاحتفاظ بها إذ أنها افلتت من يدي » .

وهذا أيضاً كان يبدو عديم الأهمية عندها .

- « هل وبّخك أبوك فعلاً ؟ » .

- « إنه لا يتركني أخرج وحدي أبداً » .

- « على كل حال ، ما كنت أظن أبداً أنهم سيحرمونك من العودة إلى

المدرسة . ولو كنت أعرف ذلك لحاولت الاندساس في غرفتك والبقاء فيها طول الليل » .

قالت الفتاة :

- « في بعض الأحيان ، كنت أنظر الى الحديقة ، من نافذتي » .

يبدو أن الأشهر الطويلة من الرقابة الدقيقة ، قد أعادتها إلى براءتها الأولى . وقد أدرك جيمبي أنه عاجز عن التنبؤ ، وعن إثارة الحركات المظلمة في روحه ، فأيقن أن آماله الخاصة أخذت تتلاشى . لم يكن ليرى أي عذر ، وأي قوة ، قادرين على إحياء تلك الآمال . لم تتنحَّ الفتاة عندما احتل المكان الذي هجرته أوندا على مربع النايلون . كانت هيزاكو ترتدي بزة جديدة رائعة زرقاء بحرية بياقة من (الدانتيل) . ربما ارتدتها من اجل الحفلة . ولعلها تخضَّبت وفق الزي الجديد ، بدراية فائقة جعلت جيمبي يُخَمِّن ذلك تخميناً . وكان ثمة عطر رقيق خفي يفوح منها . تردد جيمبي ألف مرة قبل أن يضع يده على كتفها :

- « لو أننا نهرب نحن الاثنان ؟ سوية ، بعيداً ، على شواطىء بحيرة معزولة . . . » .

- « لقد قررت ألا أراك أبداً . واليوم رأيتك . وقد بعث ذلك السعادة في نفسي . لكنني أتوسل إليك أن تجعل من هذا اللقاء لقاء أخيراً » .

كانت تنطق بنبرة صارمة ، دون أن يبدو عليها أنها تبعد جيمبي عنها . ومع ذلك كان يشوب كلامها شيء من التوسل .

- « وإذا شعرت ، بعد ذلك ، بأنني لن أستطيع الاستغناء عنك . . . فإنني لن أتراجع حينذاك عن اللحاق بك » .

- « إنني أهبط ، يوماً بعد يوم ، نحو الدرب الأسفل » .

- « سوف أبحث عنك ، حتى في أسفل أماكن (أوينـو) ، إن لزم الأمر ! » .

- « ولم لا تفعلين ذلك فوراً ؟ » .

- « لا ، ليس الآن » .

- « ولكن . . . لمَ لا ؟ » .

- «لقد جرحت جرحاً بليغاً لم أُشْفَ منه . وعندما أعود إلى ذاتي ، وعندما

ادرك أن حاجتي اليك لم تتبدل ، حينذاك سوف ألحق بك » .

ـ « نعم ؟ » .

أحس بأن موجة واسعة من الخدر قد استولت عليه :

ـ « حسناً . إنني أفهم ذلك . لا ريب أن من الخير لك ألا تهبطي من عالمك إلى عالمي . إن ما كنت قد أيقظته فيك أرجو أن تحاولي دفنه من جديد ، إلى أعمق ما تستطيعين ولعلك تجرين نحو الضياع إذا أنت فعلت غير ذلك . أما أنا . . . في عالمي الخاص ، المغاير تماماً ، فسوف أظل حافظاً لجميلك . . . وسوف أحتفظ بذكراك عزيزة في قلبي ما حييت » .

ـ « و أنا . . . إذا استطعت . . . سوف أحاول نسيانك » .

ـ « نعم . هذا حسن . معك كل الحق » .

وتحت تأثير كلماتها الحادة كانت أصابع البؤس الجليدية تحفر قلبه حفراً .

ـ « اليوم ، مع ذلك . . . » .

ارتجف صوته . بيد أن الفتاة أبدت موافقتها . ولم يكن ذلك متوقعاً . وفي سيارة الأجرة التي أقلتها ظلت صامتة . عيناها مغلقتان ، ووجنتاها شاحبتان ، أما وجهها فقد فَقَدَ كل تعبير .

ـ « انظري . سوف ترين شيطاناً ! » .

فتحت عينيها فوراً فلم تجد أي صورة شيطانية .

فقال جيمبي :

ـ « يا للحزن . . . مع ذلك ! » .

لمس بشفتيه أهداب هيزاكو :

ـ « هل تذكرين ؟ » .

ـ « نعم . . . أذكر » .

كان وقع الضجيج المختلط بالكلمات الفارغة يحلق حتى يبلغ أذني جيمبي كأنه هبّة ريح مفجعة على أرض معزولة .

وكان عليه ألا يرى هيزاكو بعد ذلك أبداً . جاء عدة مرات ليتسكع في تلك الأرض القاحلة . وفي ذات يوم ، وجد الباب مسدوداً . لقد قطعت الأعشاب المجنونة ، وسويت الأرض . ثم ما لبثت أن بدأت الأعمال ، بعد ذلك بسنة

ونصف السنة ، أو ربما بسنتين . لم يكن ذلك البيت الصغير جديراً بوالد هيزاكو . هل بيعت الأرض إذن ؟ ظل جيمبي هناك فترة طويلة ، وقد أغلق عينيه ، وطفق يستمع إلى أغنية (المنجر) المنتظمة الصادرة من يدي النجار .

كان يخاطب هيزاكو وهي بعيدة جداً . وفكر في أعماق ذاته : هل يمكن لذكراها ، التي يسبح فيها كل شيء هنا، أن تجعل السكان الجدد، في هذا البيت ، الذي يبنى في هذه اللحظة ، سعداء ؟ وهنا شعر بأن أغنية (المنجر) اكتسبت معنى .

لم يعد جيمبي ، بعد ذلك ، الى « مجرى العشب » بعد أن رأى أن البيت أصبح ، منذ الآن ، ملكاً لأناس آخرين .

كيف كان في وسعه أن يعرف أن هيزاكو قد تزوجت ، وأنها ، بكل تحديد ، هي التي ستسكن هناك . . . !

« نعم . إنها سوف تأتي لصيد الحباحب » .

لقد كان على أتمِّ الثقة من ذلك ، ومن رؤ ية تلك المراهقة مرة ثالثة .

كان من المفروض أن يستمر العيد خمس أمسيات متتالية ، ورغم أن جيمبي كان على استعداد تام للتنقل من مكان إلى مكان ، في كل مرة ، فقد عرف كيف يخمن اليوم الدقيق لظهور الفتاة . لو أن هذه الفتاة انتبهت إلى المقالة الصغيرة التي نشرتها الصحف ، في اليوم الثالث ، لما كان لذلك التخمين ما يفسره . ومهما يكن من أمر ، فإن جيمبي ، عندما خرج من داره ، كان يحمل في جيبه الطبعة المسائية ، من إحدى الصحف ، وكان قد استولى على كيانه كله احتمال لقائها . ولقد خيل إليه أنه لم تكن توجد كلمات قادرة على خلق البريق في عيني ماشييه اللوزيتين . كان يرسم على جفونه ، بإبهامه وسبابته ، شكلاً حياً لسمكة دقيقة جداً وكاملة . كان يكرر هذه الحركة ، وهو ماضٍ في سبيله ، وكانت تحيط به موسيقى بديعة كأنها صادرة من الجنّة .

ـ « سوف أولد مرة ثانية ، صغيراً من جديد ، بقدمين فاتنتين . أما أنت فيكفيك أن تظلي على حالك . ولسوف نرقص سوية شتى ألوان الرقص المتألق ! » .

كان يتحدث بصوت عال من فرط حماسته . وكان ثوب الرقص الطويل الذي ترتديه الفتاة يتموج ويلتف حولها .

ـ « كيف يمكن أن يوجد مثل هذا . . . طفلة شهية ! إنها تنتمي إلى عائلة ممتازة ، بكل تأكيد . لكن مثل هذا الكمال لا يمكن أن يدوم أكثر من سن السادسة عشرة ، أو السابعة عشرة على أكثر تقدير . . . . » .

كان جيمبي يرى أن اللحظة الكاملة المجسدة في المراهقة ليست إلا عابرة . أي سر يمكن أن يضفي على هذه الفتاة جمالها وكمالها الذي لا يضاهى ، عندما تقوم الفتيات الأخريات بإخفاء الأريج النفاذ للبرعم المتفتح ، تحت غبار الكتب المدرسية ؟ وأي نور ، خاص بها ، يعطيها هذا الإشعاع وهذه الشفافية ؟ كان الاعلان المعلق على أحد جدران الكوخ الذي يؤجر الزوارق يقول : « سوف يطلق سراح حشرات الحباحب في الساعة العشرين » .

تغيب الشمس في شهر حزيران ، في طوكيو ، حوالي الساعة التاسعة عشرةوالدقيقة الثلاثين ، لذا أخذ جيمبي يذرع الجسر ، حيث يعلو مستوى الماء ، طولاً وعرضاً ، بانتظار حلول الموعد .

كان ثمة صوت يردد في مضخم للصوت :

- « يرجى من الأشخاص الراغبين في استئجار زورق أن يحصلوا على رقم وأن ينتظروا دورهم » .

لاقى صيد الحباحب نجاحاً باهراً بحيث كان يظن أن أصحاب الزوارق هم الذين كانوا ينظمونه . كان على جماهير الناس ، على الجسر ، أن يكتفوا بمراقبة الغادين والرائحين ، على الرصيف ، بعيون شاردة ، ريثما يبدأ إطلاق سراح الحباحب ، أو أن يتأملوا اندفاع الزوارق الموجودة في وسط الماء . أما جيمبي فقد كان عاجزاً عن كبح جماح هياجه ، ولم يكن يعرف إلا انتظار شيء واحد هو مجيء الفتاة . لذا لم يكن يهتم بجماهير الناس أو بالزوارق .

وقد ذهب مرتين إلى رابية الجنكة . بل إنه أحسّ بالإغراء يدفعه إلى الهبوط في أعماق الحفرة،وقد تذكر ما جرى له،في المرةالأولى، فوضع يده على الحاجز الصغير الحجري ، وقرفص برهة . لكن العيد ، في ذلك المساء ، جذب عدداً كبيراً من المارة فوق الرابية ، سمع وقع أقدام الناس وأسرع في الهبوط نحو الشاطىء ، كان ثمة خطوات أخرى خلفه لكنه لم يلتفت إلى الوراء .

شرع يتأمل النشاط الذي أثاره العيد ، عند المنعطف ، في أسفل الشاطىء تماماً . كانت أنوار المدينة ، وراء الجسر ، تنعكس على سماء منخفضة ، وعلى طول الطريق كانت أضواء السيارات تسرع راكضة مهتزة .

وفكر جيمبي بقلب خافق : « هه ! وأخيراً ! » .

ومع ذلك ، بدلاً من أن يستدير ليعود نحو المستنقع الاصطناعي ، استمرّ ماشياً بصورة مستقيمة ، دون أن يعرف السبب الذي دفعه الى ذلك ، فوجد نفسه في منتصف الحي السكني ، أما الخطوات التي كانت تسمع خلفه ، فقد انحرفت متجهة نحو المستنقع الاصطناعي ، ولكن بعد أن تمكن أحد المشاة من الصاق ورقة سوداء على ظهر جيمبي . . . من الحبر الأسود عليها كان ينفصل سهم أحمر رسم لكي يبين مكان العيد . حاول جيمبي عبثاً أن يلتوي لكي ينزع الورقة . مدّ ذراعه بقوة إلى الوراء ، وعضّ لسانه ، وطقطقت مفاصله .

ـ « لماذا لا تتبع أنت سهمك الخاص ؟ بدلاً من أن تنزعه . . . ؟ ! » .

أرغمه الصوت العذب النسوي على الالتفات . ولكنه لم ير أحداً . لم يكن هناك سوى أناس قادمين ، من الاتجاه المقابل ، لكي يذهبوا إلى العيد . لا ريب أن المرأة كانت تتحدث في الإذاعة ، قطعة موسيقية إذاعية ، بكل تأكيد ، ليست على علاقة بالكلمات التي سمعها جيمبي أبداً .

قال :
ـ « شكراً » .

وجّه إلى ذلك الصوت المتخيّل تحية صغيرة بيده وتابع سيره بخطوات أكثر خفة . ثم عاد إلى التفكير :
« يعرف الانسان لحظات هدوء خاطفة ولا يجد لها تفسيراً » .

وعلى مقربة من الجسر ، أقام بعض الباعة الصغار معرضاً لبضائعهم . كانوا يعرضون حباحبهم : الحشرة بخمسة (ينـات) والقفص بأربعين . لم تكن ثمة حشرة واحدة تحلق فوق المستنقع الاصطناعي . ومع ذلك ، حين وصل جيمبي الى منتصف الجسر ، لمح أخيراً واحداً ، من تلك الأقفاص ، كبيراً موضوعاً في أعلى برج صغير يطفو فوق سطح الماء .

كان الأطفال يصرخون وقد تملكهم السُّعار :

ـ « بسرعة ! أطلقوا سراحها ! اطلقـوا سراحها ! » .

فهم جيمبي أن اللعبة تنحصر في إطلاق سراح حشرات الحباحب من أعلى البرج لكي يحاول الناس الموجودون في الزوارق ، في الأسفل ، أن يلتقطوها .

كان فوق البرج الصغير رجلان أو ثلاثة ، وثمة مجموعة من الزوارق حوله . وكان بعض الناس ، الذين احتلوا أماكنهم في الزوارق ، مزوّدين بشباك خاصة بالفراشات أو بعصي من الخيزران . كذلك كانت تنتصب ، بين الجماهير المحتشدة على الضفة ، أو على الجسر ، هنا وهناك ، شباك وعصي خيزران قصيرة ، كان لبعضها قصبات طويلة جداً .

استقر البائعون الجوّالون في الجهة الثانية من الجسر أيضاً . وقد سمع أحدهم وهو يقول شارحاً :

- « هناك ، تأتي حباحبهم من (أوكاياما) . وهنا تأتي من (كوشو) . حباحب (أوكاياما) أصغر وأنحف . إنهما فعلاً صنفان متميزان » .

اقترب جيمبي من البضائع المعروضة . كان أصحابها يبيعون الحشرة بعشرة (ينات) أي ضعف ثمنها على الطرف الثاني من الجسر ، أما القفص فسعره مئة ين اذا كان يحوي سبع حشرات .

طلب جيمبي ، وهو يقدم ورقتين من فئة مئة (ين) :

- « عشر . . . ولكن كبيرة ! » .

- « إنها كلها ضخمة . إذن . . . عشر حشرات . . . وقفص بسبعة ؟ » .

مدّ البائع يده في كيس قطني مبلل بالماء ، فأثار وميضاً مشوشاً ، أخذ يلتمع ، بصورة متقطعة ، شبيهة بإيقاع التنفس . وأخذ يقبض على واحدة أو اثنتين من الحشرات ، في كل مرة ، ثم يسجنها في قفص طويل أنبوبي . كان القفص ضيقاً جداً لا يوحي بأنه يمكن أن يتسع لسبع عشرة فراشة . وحين كان جيمبي يحاول رفعه إلى مستوى عينيه كان البائع ينفخ فوقه ، لكي ينعش الومضات الصغيرة ، ويغرق جيمبي برذاذ لعابه .

- « يبدو عليها الحزن . أظن أنها تحتاج إلى عشر أُخَر لكي تحصل على رفقة مناسبة » .

وبينما كان البائع يجمع الحباحب الى بعضها كانت جماعة الأطفال تطلق صيحات الفرح . وكان جيمبي قد غُطي بالرذاذ . ومن أعلى البرج ، كانت الحباحب ، التي تقذف نحو السماء تعود لتسقط باسترخاء ، كأنها مفرقعات حلّقت طويلاً في الفضاء وخمدت نارها . أما تلك التي كانت تتمكن من استئناف

تحليقها ، في آخر لحظة ، وتطير على مستوى الماء ، فتقع أسيرة بسهولة . لقد أطلقت حوالي عشر حشرات زائدة ، وشرعت الزوارق والشباك ، وعصي الخيزران القصيرة تتسابق ، بصورة غير منتظمة ، لالتقاطها ، وكان الماء الذي تحركه أغصان الخيزران ، في كل اتجاه ، يتدفق حتى يصل إلى المتفرجين المكدسين على الضفة . وقد كان يسمع من وقت إلى آخر :

- « إنها تحلق تحليقاً سيئاً في هذا العام . وسبب ذلك هو البرد » .

وعلى هذا النحو ، كانت هذه التظاهرة تجري في كل عام . لقد انتظر الناس عبثاً ظهور ومضات جديدة .

أعلن مضخم الصوت :

- « سوف يستمر إطلاق الحباحب حتى الساعة الواحدة والعشرين »

بيد أن الرجلين أو الثلاثة ، الذين كانوا على قمة البرج الصغير ، لم يتحركوا ليفعلوا شيئاً في هذا الصدد . ظل الجمهور ينتظر صامتاً . لم يعد يسمع سوى الضجة الخفيفة الناشئة عن بعض المجاديف التي لم تكن الحباحب هاجسها الوحيد .

- « أوه ! يستطيعون أن يطلقوها الآن ! » .

- « ولِمَ العجلة ؟ إذا أطلقوها بسرعة . . . انتهى العيد ! » .

حركات أناس راشدين . . . كان جيمبي يحمل بيده القفص الذي يضم سبعاً وعشرين فراشة ، وقد قدر أنه نال ما تمناه من هذه الحباحب . ولكي يتجنب التلوث مرة أخرى ، ابتعد عن شاطىء المستنقع الاصطناعي ، وذهب ليستند إلى شجرة مقابل مركز الشرطة تماماً . وبهذه الحركة الانسحابية أصبح من السهل جداً عليه أن يرى الجسر من طرفه إلى طرفه . كما أن وجود الشرطي الشاب ، بوجهه المسالم الوديع ، وبعدم اكتراثه بما يجري ، عند المستنقع الاصطناعي ، أوحى اليه بثقة فريدة . ومن ذلك المكان الذي يقف فيه جيمبي الآن صار متأكداً أنه سوف يتمكن من اكتشاف الفتاة .

وبعد برهة من الزمن ، بدأ إطلاق الحباحب ، دون انقطاع ، من أعلى البرج . دون انقطاع . . . ليست هذه العبارة دقيقة مع ذلك . فالرجال الذين كانوا ينثرون الحشرات عشراً عشراً ، في كل مرة تقريباً ، لم يكونوا يتوصلون إلى

جمعها بسهولة ، أو أنهم كانوا يلاحظون بعض فترات الراحة ، ويراعون هياج الجماهير الذي كان يتصاعد حيناً ، ويخفّ حيناً آخر ، ولكنه يظل شديداً متصاعداً مع ذلك . كان جيمبي يحس بعناء كبير في الحفاظ على هدوئه ، على نقيض رجل الشرطة . لم تكن غالبية الحباحب تطير بعيداً ، بل كانت تدور على شكل قطع مكافيء صغير ، مثل أغصان الصفصافة المستحية . ومن وقت إلى آخر ، كانت واحدة منها تطير إلى ارتفاع شاهق ، أو تتجه نحو الجسر . وعلى هذا الجسر ، بطبيعة الحال ، كان الشبان والشيوخ والصبيان والفتيات يتراصون عند الحاجز . ألقى جيمبي عليهم نظرة فاحصة . كان ثمة أولاد مسلحون بشباكهم قد جثموا عند الحافة الخارجية . لسوف تكون معجزة إن لم يسقطوا . كان ثمة عناقيد بشرية تومـيء بأيديها ، وتزعق هائجة ، وهي تحاول أسر هذه أو تلك من الحشرات التعيسة التي تتطاير ناشرة ضوءها الصغير بدون قناعة . أما جيمبي ذاته فقد ظل على شكه ، وقد حاول إحياء حباحب بحيرة طفولته .

ـ « هيه ! هناك ! أنت . . . في شعرك واحدة ! » .

كان أحد الناس ، من أعلى الجسر ، ينادي فتاة تشغل قارباً . لم تفهم الفتاة أنها هي المقصودة ، أمسك مرافقها بالحشرة .

حنيذاك ، لمح جيمبي الفتاة .

كانت تستند بمرفقيها ، على حرف القارب ، وتتأمل مستوى الماء . كانت ترتدي ثياباً قطنية بيضاء . كان ثمة ستارة ، من الناس ، بينها وبين جيمبي . ولم يكن يميز منها سوى خدها وكتفيها . ومع ذلك ، لا يمكن أن يخدع . تقهقر بضع خطوات ، ثم انحرف قليلاً ، فاقترب منها خلسة . كان يتوقع أن تستدير وقد استولى على كيانها المشهد كله . وفكر جيمبي : « إنها لم تأت وحدها بكل تأكيد » .

توقف نظره على مراهق كان على يسار الفتاة . أصابه نوع من الحياء ، واضطر إلى أن يقبل بأن هذا المراهق لم يكن ذاك الذي عرفه قبلاً . ليس ثمة أي شك محتمل . لم يَرَ جيمبي منه إلا ظهره . لكنه لم يكن ظهر ذلك الطالب الذي كان ينتظر الفتاة على الرابية الصغيرة ، في ذلك اليوم الذي كانت ترافق فيه كلبها في النزهة ، والذي قذف جيمبي على قارعة الطريق . أما إنسان هذا اليوم ، الذي

يرتدي قميصاً أبيض ، فيشبه ، هو أيضاً ، الطالب وإن لم يكن يرتدي سترة ، أو يضع على رأسه قبعة ، كما يفعل الطلاب .

« لم يمض على ذلك سوى شهرين ! » : فكر جيمبي بذلك . وظل مستغرقاً بهذا الدليل الذي يكشف عن عدم اكتراث الفتاة ، حتى إنه داس زهرة دون أن ينتبه . ألا تملك قلباً متحولاً متقلباً مقابل نظرة العبادة التي كان الفتى يوجهها اليها ؟ ولكن ، هل يعني حضورهما سوية إلى صيد الحباحب وجود رابطة بينهما ؟ وتنبأ جيمبي بوقوع حدث طارىء بين الفتاة وحبيب الهضبة الأول .

حشر نفسه بين جادية القريبين ، ثم تشبث بالإفريز ، ومدّ أذنيه . فلقد أطلقت الحباحب من جديد .

كانت الفتاة تقول :

- « لكنني أريد أن ألتقط بعضها . . . من أجل ميزونو » .
- « ولكن . . . لا . . . . إن هذا يسبب له الحزن . لا تقدم الحباحب الى مريض . . . ! » .

- « وعندما لا يتمكن هذا المريض من النوم مثلاً ؟ قد يبعث ذلك السرور في نفسه » .
- « إنه سوف يشعر بمزيد من البؤس حتماً » .

فهم جيمبي أن الطالب الآخر ، الذي كان قد رآه قبل مضي شهرين ، طريح الفراش . كان يخشى أن يكشف أمره ، إذا زاد في انحنائه ، ففضل أن يبقى منزوياً، يتأمل المظهر الجانبي للفتاة . كان شعرها المعقوص الى أعلى قليلاً يتطاير على شكل موجات مرنة معبودة . وخيل إليه أنه تذكر أن في زينتها شيئاً من الإهمال يوم كانت على هضبة أشجار الجنكة .

لم يكن الجسر مضاءً ، فظل يسبح في الظلمات ، لكن جيمبي لم يكن يرى منه إلا رفيق تلك الفتاة ، الذي كان يتمتع ببنية أضعف من بنية الطالب الأول . من المؤكد أن الاثنين كانا صديقين .

- « حين تذهب لرؤ يته قريباً حدِّثه عن صيد الحباحب ! » . فردّد الشاب كأنه كان يحدث نفسه :

ـ « وإذا حدثته عن هذا المساء ؟ » .

ثم أضاف :

ـ « سوف أحدثك عنه عندما أذهب لرؤ يته . وأنت تعرفين أن هذا يبعث السعادة في نفسه . واذا قلت له إننا ذهبنا لحضور عيد الحباحب فإنه سوف يتخيل أن هذا العيد موجود في كل زاوية . . . » .

ـ « كلما ازددت تفكيراً فيه زادت رغبتي في أن آخذ اليه من هذه الحباحب » .

ظلّ الطالب صامتاً :

ـ « إن ما يحزنني أشدّ الحزن هو عجزي عن زيارته . قل لي . . . يا ميزوكي . . . حدثه عني كثيراً بصورة خاصة . . . ! » .

ـ « لن أنسى ذلك أبداً . إن ميزونو يفهم الأمور جيداً . . . على كل حال » .

ـ « في تلك الليلة حين رافقتنا أختك الكبرى لرؤ ية أشجار الكرز المزهرة . . . قالت لي : (كم أنت سعيدة يا ماشييه !) . . . مع أنني لست كذلك أبداً ! » .

ـ « لسوف تصيبها الدهشة إذا عرفت ذلك » .

ـ « حسناً . . . أدهِشْها إذن » .

ـ « هذه فكرة . . . نعم » .

ضحك ضحكة قصيرة قبل أن يستأنف حديثه كأنه كان يريد تفادي الموضوع :

ـ « لم أرها منذ ذلك اليوم . أليس من الأفضل لها أن تظل على اعتقادها بوجود أناس ولدوا لكي يعيشوا سعداء؟ » .

خمّن جيمبي أن الشاب ميزوكي كان عاشقاً لماشييه أيضاً . وحدس ، مع ذلك ، أن الحب بين ماشييه وميزونو قد حكم عليه بالضياع ، وأن صحة الطالب لن تعود إلى سابق عهدها .

تنحّى عن الحاجز لكي ينساب خلف الفتاة . كان يخيل إليه أن البزة التي ترتديها كانت من القطن السميك . علّق جيمبي خلسة ، في حزام تلك البزة ،

القفص المليء بالحباحب، مستعيناً بكلّاب من سلك حديدي . لم تلحظ الفتاة شيئاً . وبعد أن أتمّ فعلته ابتعد حتى طرف الجسر ، ثم توقف ، وشرع يتأمل اللمعان الضعيف الذي ينشره القفص على ظهر ماشييه .

كيف ستتصرف الفتاة حين تكتشف قفص الحباحب المليء وقد علق سراً في حزامها ؟ كان من السهل جداً على جيمبي أن يعود أدراجه ليراقب ذلك المشهد ، اذ كان يكفي أن يختلط بالجمهور الكثيف المتراصّ في وسط الجسر . فلم يكن ثمة ما يخشاه ، فهو ليس من الأراذل الذين يجرحون أقفية الشبان بموسى الحلاقة . ومع ذلك ، أبعدته خطاه عن الجسر . كان يمكن أن يقال إن الفتاة كانت تستطيع أن تجعله يكتشف خجلها . حكّ رأسه موافقاً لما بدا له أنه مرافعة يدافع بها عن نفسه ، وتابع سيره بمحاذاة الهضبة ذات أشجار الجنكة .

- « حسناً . . . إنها ضخمة . . . تلك الحشرة » .

لقد أخذ تواً نجمة مقابل الحشرة دون أن يبدو عليه ظل للتردد .

وقال مرة أخرى هائجاً :
« ضخمة . ضخمة فعلاً » .

وسمع صوت المطر فجأة وهو يضرب أوراق الجنكة . قطرات سمينة ، متباعدة ، كأنها حبات بَرَد نصف ذائبة ، أو كأنها الماء الذي ينساب من حافة السطح . لم تعرف تلك الأمطار في الأراضي الواطئة أبداً . وعندما يستمع إليها المرء ، فإنه يرى نفسه فوراً في زاوية من زوايا الهضبة ، تحت أشجار ذات أوراق عريضة ، بعد أن نصب الخيمة ، في المساء ، وفجأة . . . يهطل المطر . كانت القطرات سريعة جداً بحيث يصعب خلطها بقطرات الندى التي تتساقط من ورقة إلى ورقة ، لم يتسلق جيمبي جبلاً طيلة حياته ، ولم يُخَيِّم على هضبة عالية . من أين إذن جاءت أصول هذا الوهم السمعي إن لم تجىء ، مثل غيرها من الأوهام ، من شواطىء بحيرة أمه ؟

« وفضلاً عن ذلك ، لا يمكن القول إن القرية تقع فعلاً في الأعالي . وهذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها هذا المطر . . . » .

« ومع ذلك ، نعم . . . لقد سمعته . . . في أعماق غابة . . . عندما سينتهي المطر تماماً . نعم . . . في اللحظة التي كانت فيها القطرات التي تتدفق من

الأوراق ، بعد أن تراكمت عليها ، قد شرعت تحدث من الضجيج أكثر مما يحدث المطر نفسه . . . ! » .

ـ « ياغوي ـ شان سوف يصيبك البرد في هذا المطر ! » .

« إيه نعم ، لعله أصيب بالمرض على هذا الشكل ، صديق ماشييه الصغير . كان يخيم في التلال فتلقى المطر . وأخذ عذابه الآن شكل هذه القطرات الشبحية ، التي تدق على أوراق الجنكة وكأنها قرع الطبول . . . » .

ظل جيمبي يحلم على هذا المنوال ضائعاً في عزلته . أليس له الحق كل الحق في خلق هذا المطر الذي دفعه إلى الحلم ، حتى لو لم يكن هذا المطر غير موجود ؟

تعلّم على الجسر ، في ذلك اليوم ، اسم ماشييه . لو أن هذه الفتاة ، أو جيمبي نفسه ، ماتا قبل يوم واحد فقط ، لتطور كل شيء تطوراً مغايراً ، ولما عرف هذا الاسم . فلماذا إذن يفرّ من الجسر ، الذي كانت عليه ، ليذهب الى الهضبة التي لا يمكن أن تكون عليها ، في اللحظة ذاتها التي شاء فيها القدر أن يعقد هذه الرابطة بين الفتاة وبينه ؟ لقد تسلّق هذا المنحدر مرتين ، قبل أن يأتي إلى العيد ، مع ذلك . لقد قال لنفسه إنه سيعود إليه مرة ثالثة بعد أن رأى ماشييه .

لقد بقيت الفتاة على الجسر . لكن ظلها هناك ، تحت أشجار الجنكة ، كان يتخطى الهضبة حاملاً قفصاً مليئاً بالحباحب الى ذلك الحبيب المسجى في الفراش .

كان جيمبي قد علق القفص دونما سبب محدد ، بعد أن أفسح المجال لنزوة طارئة ، في أعماقه ، دفعته ، بكل بساطة ، الى أن يفكر في أن حدة مشاعره هي التي كانت تدفعه إلى الزعم بأنه كان يريد ربط قلبه المتأجج بجسم الفتاة . وفضلاً عن ذلك ، كان قد سمع هذه الفتاة تتحدث عن رغبتها في حمل الحباحب إلى الحبيب المريض ، فاستطاع كذلك أن يتخيل أنه ما فعل ذلك ! لا ليساعدها في تحقيق هذه الرغبة فأعطاها القفص بمزيد من التكتم .

وكان مطر ، غير موجود ، يهطل مدراراً على فتاة خيالية ، عُلِّق على حزام ثيابها البيض قفص الحباحب ، وهي ماضية في تسلق مرتفع أشجار الجنكة قاصدة زيارة صديقها المريض .

« نعم ! صورة تدعو للرثاء ، حتى عند الاشباح ! » . بهذا فكر جيمبي ساخراً من وساوسه الخاصة . ومع ذلك ، حتى لو فرضنا أن ماشييه كانت موجودة على الجسر ، برفقة ميزوكي الشاب ، فلا شيء يمنع جيمبي من أن يشعر بوجودها الى جانبه فعلاً فوق رابية أشجار الجنكة .

وصل إلى أعلى الرابية . وفي اللحظة التي كان يتسلق فيها الأكمة الصغيرة أحسّ بتقلص عضلي ينهش بطة ساقه ، فتشبث بخصل العشب الندية . لم يكن الألم حاداً لكي يرغمه على الزحف ، الا أنه مع ذلك تابع تسلقه وهو يجرّ نفسه جرّاً :

ـ « أوه . . . . ! » .

لم يعد وحيداً . كان هناك وليد صغير جداً ، وكأن لم يكن بينهما سوى مرآة . وكان ذلك الوليد يكرر تقدمه الأخرق معكوساً تحت جيمبي . يـدا الحياة الحارتان ، تعارضان ، راحةً على راحةٍ ، يدي الوليد الجليديتين اللتين تشبهان يدي الموت ذاتهما . انتصب جيمبي على حين غرة . لقد تذكر مكاناً سيئاً في مركز مياه معدنية حارة . كان قاع حوض الاستحمام مؤلفاً من مرآة . . . وفي قمة الرابية وجد جيمبي نفسه ، في ذلك المكان الذي ألقاه منه الطالب متدحرجاً في التراب.، في اليوم الأول ، بعد مطاردته ماشييه ، وقال له : « أبله . . . ! » .

وعلى الرابية أيضاً ، كانت ماشييه قد حكت لحبيبها عن استعراض الأول من أيار، ومواكب الرايات الحمر ، هناك ، على طول طريق الحافلات . وفي تلك اللحظة ذاتها ، مرّت إحدى الحافلات ، تحت أنظار جيمبي ، وكانت ثمة بقعة من النور ترقص من نوافذها على كتلة الأشجار الكثيفة التي تقع على الشاطىء . كان جيمبي ينظر دائماً شارد الذهن . وعلى الأكمة صمتت ضجة المطر الخيالي . فصرخ :

ـ « أبله . . . ! » .

ثم ألقى بنفسه من أعلى المنحدر . وقد حاول أن يجعل سقوطه طبيعياً لكنه لم يبلغ ذلك .

وعندما بلغ قارعة الطريق تشبث بخصلة من الحشائش . ثم انتصب واقفاً ،

وتابع سيره على الطريق الذي يحاذي الأكمة ، وهو يشمّ رائحة الحشائش في راحة يده . وكان الوليد الصغير يصرّ على مطاردته ، خطوة خطوةٍ ، تحت غطائه الترابي . ولقد كان أهم عنصر من عناصر القلق ، الذي يتملك جيمبي ويسيطر عليه ، هو عدم معرفته أين يوجد ابنه الآن ، وهل هو ما يزال على قيد الحياة . . . ؟ وفكر بكل قناعة : اذا كان على قيد الحياة فإننا سوف نلتقي بكل تأكيد . كما أنه لم يكن يعرف معرفة وثيقة إن كان ذلك الولد ابنه فعلاً .

لقد اكتشف ولد منبوذ ، ذات مساء ، على عتبة البيت الذي كان جيمبي يستأجر فيه غرفة . وكان ثمة كلمة صغيرة معلقة بدبوس تقول : « هذا الوليد هو ابن جيمبي » . لكن جيمبي لم يفقد رباطة جأشه ، ولم يَعْلُ وجهه الإحمرار عندما انفجرت صاحبة البيت غضباً . وعلى كل حال ، لم يكن الأمر سهلاً على طالب مهدد بالاستدعاء للقتال في الحرب ، بين برهة وأخرى ، أن يتلقى طفلاً ، يلقى بين ذراعيه ، وأن يتكفل بتربيته . وتصبح المصيبة أدهى إذا كانت الأم بغياً .

ـ « ليس هذا إلا لأنها تريد أن تخلق لي المتاعب . لقد تركتها تسقط . وهي تحاول الآن أن تنتقم ! » .

ـ « هذا يعني أنك هربت حين علمت بأنها حملت . أليس كذلك يا سيد مومو ي ؟ » .

ـ « ولكن . . . لا . قطعاً . . . لا . » .

ـ « إذن . . . لماذا هربت ؟ » .

لم يجب جيمبي عن هذا السؤال . لكنه قال بشكل قاطع :

ـ « المسألة هي إعادة هذا اللقيط إلى أمه . وهذا هو كل شيء ! » . ثم ألقى نظرة عابرة على الرضيع الذي كانت السيدة الطيبة تحمله على ركبتيها . وأضاف :

ـ « هل تستطيعين أن تحتفظي به لحظة . . . ريثما أنادي شريكي ؟ » .

ـ « شريكك . . . ولكن أي شريك ؟ ألا تريد أن تهرب وتترك لي هذا الولد يا سيد مومو ي ؟ » .

ـ « القضية فقط . . . هي أنني لا أريد أن أكون وحيداً عند أخذه ! » .

ـ « وهل سيكون ذلك باعثاً على السرور ؟ » .

تبعته صاحبة الدار حتى الباب وعيناها مثقلتان بالشكوك .

انطلق جيمبي باحثاً عن شريكه « نيشيمورا » طالباً منه المعونة . لكن كان عليه، هو نفسه، أن يأخذ ذلك الطفل. فصديقته الخاصة هي التي نبذته. وضع جيمبي الرضيع في داخل معطفه ، ولم يزرًّ إلا الزر الأخير ، وشعر بأن المعطف ضيق عليه . وفي الحافلة ، شرع الوليد في البكاء . وبدا الركاب الآخرون وكأنهم قد استلقوا على قفاهم من الضحك أمام هذا الطالب الذي قيّدته ثيابه بشكل غريب . فأخذ جيمبي يضحك ليخفي غرابته واضطرابه . ثم كشف عن رأس الرضيع . ولم يجد شيئاً يفعله بعد ذلك فخفض عينيه ، مثبتاً نظره على جمجمة الرضيع .

في تلك الحقبة من الزمن ، كانت الأحياء الشعبية في شرقي طوكيو قد اكتسحها حريق هائل إثر القصف الأول الرهيب للمدينة . ولقد كفّت البيوت المغلقة عن أن تشكل جبهة مستمرة ، فتمكن الشريكان المتواطئان من التسلل إلى أحد الشوارع الخلفية ووضع الوليد على عتبة مخرج بناية . وبعد ذلك أسرعا في الانسحاب مبتهجين .

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتوارى فيها جيمبي ونيشيمورا عن الأنظار ، من هذا المكان السيء ، وقد تملكهما الفرح والبهجة ذاتها . ولقد وزعت عليهما ، كما وزعت على غيرهما من الطلاب ، باسم « الدفاع السلبي » ، أحذية قديمة من القماش أو أحذية ذات نعل مطاطي . وكان المستفيدون من هذه المساعدة يصطفون طوابير ، على الطريقة الانكليزية ، أمام بيوت الدعارة ، ويتركون تلك الأحذية أمام الباب بدلاً من دفع المال . كان جيمبي ونيشيمورا يحتاجان إلى النقود ، بكل تأكيد ، لكن هذا التسكع نفسه هو الذي كان يوفر لهما الأحاسيس القوية . لقد كانا يريان فيه وسيلة تزيل ما علق بهما من عار . وفي أثناء « الدفاع السلبي » نفسه ، الذي ينهك حتى الأحذية ، كانا يتبادلان فيما بينهما غمزات العيون الذكية القوية . لقد كان عندهما هذا العزاء ، على الأقل ، في أنهما يعرفان مقبرة متميزة تصلح للأحذية الضخمة التي تمرّ في أزمة الاحتضار !

ورغم أسلوبهما في الحصول على اجازة قصيرة فإن الرسائل التي بتلقيانها من البغايا لم تكن لتعذرهما . لقد كانت الحرب قائمة هناك ، قريبة جداً منهما ، تهددهما بموت أكيد . ولم يكن جيمبي وصديقه بحاجة الى كتمان اسمهما وعنوانهما . كان كل الطلاب المهيئين للصعود نحو الخط الأول يتظاهرون بأنهم

أبطال . ومن جهة أخرى ، كانت كل البغايا اللواتي يتمتعن بوضع رسمي ، المسجلات عند الشرطة وغير المسجلات ، قد وضعن تحت الرقابة ، أو نظمن في « الدفاع السلبي » . ومن المحتمل جداً أن تكون صاحبة جيمبي واحدة من تلك الأقلية التي بقيت تمارس عملها على الهامش . هل أبطل العمل إذن بالنظام والقواعد الدقيقة الخاصة بالبيوت المغلقة وحلّ محلها مشاعر أكثر إنسانية قابلة للخطأ ؟ وهل فكر جيمبي وشريكه ، من جانبهما ، فقط بوضع الفتيات اللواتي وقعن فريسة الخوف من عقوبة أيام الحرب الرهيبة ، واللواتي يحتجن إلى الشفقة أكثر من أي وقت مضى ؟ هل كانا ، هما أيضاً ، محتقرين ذليلين إلى درجة جعلتهما يعتقدان أن مكرهما السعيد لا يمكن أن يُعَدَّ إلا طريقة من طرائق الشباب الطائش تقبل تماماً عند الشباب أنفسهم ؟ وعلى نحو ما كان متوقعاً ، لقد تسلّلا ، في الأسلوب ذاته ، ثلاث مرات أو أربعاً ، ثم لم يعودا إلى ذلك أبداً .

إن هجر الطفل في زاوية من زوايا الزقاق لم يكن يمثل عندهما إلا مغامرة جديدة ، هي الأخيرة . بدأ الثلج يهطل في عصر اليوم التالي ، على الرغم من أننا كنا في منتصف شهر آذار . وعند المساء كان الثلج قد تراكم واستقر . كان كل شيء يبدو غير معقول إلا ذلك الطفل المعرّض لبرد الزقاق المميت ، والذي كان من الصعب الاحتفاظ به

- « لقد أحسنّا صنعاً بما فعلنا أمس » .
- « بالتأكيد ! » .

تصدّى جيمبي للثلج ، وثابر على تصميمه ، حتى بيت نيشيمورا لأنه كان يريد أن يتحدث إليه . لم تبدُ ، في بيت الدعارة ، أي علامة تدل على الحياة . أما الطفل فلم يعرف جيمبي أو صديقه ماذا أصابه .

ولكن ، هل وضعاه فعلاً أمام هذا البناء الذي هجر على حين غرة ، للمرة الأخيرة ، قبل سبعة أشهر أو ثمانية ؟ كان جيمبي في الجبهة عندما فكر في ذلك . وأم الطفل الوليد هل هي واحدة من بنات ذلك البناء ، هذا إذا فرضنا أنهما لم يخطئا ؟ هل كان من الممكن أن تكون أمه إحدى البنات اللواتي يعملن بدون رخصة ، وقد حملت به دون وعي منها ، وبعد أن وضعته احتفظ بها مستخدموها ، ذلك أن الحبَل كان يشكل أسوأ خرق للأنظمة ؟ كان يمكن أن يتخيل المرء أن البناء نفسه، بسبب نزعة الشفقة التي كانت تسود آنذاك،

والذي كانت تمتزج فيه ، في آن واحد ، العصابية والبلادة غير العادية ، قد سكنته الأم ، لكن هذا يظل أمراً غير محتمل .

الواقع ، ألا يمكن أنه ، هو جيمبي ، عندما ألقى بالطفل ، جعل من هذا الطفل إنساناً منبوذاً نهائياً ؟

اختفى نيشيمورا في قلب الإعصار . أما جيمبي فقد خرج منه سليماً معافى ، بل إنه توصل إلى أن يستلم وظيفة مدرس .

وبينما كان يتسكع مرهقاً عبر الخرائب المحترقة في الحي المشبوه فاجأ نفسه وهو يقول بصوت عال :

- « إيه ! تكفي هذه المسخرة ! » .

كان يخاطب المومس . تلك المومس التي لم تحمل من جيمبي طفلاً ، فاكتفت بأن استعارت واحداً ، من هذه أو تلك من رفيقاتها ، اللواتي يوجد عندهن أطفال كثيرون ، ثم ذهبت ووضعته أمام البيت الذي يقطن فيه . وبذلك ترغمه على أن يذهب ليستفسر منها أو ليأخذها معه أخيراً .

- « ونيشيمورا الذي كان في وسعه أن يقول إن كان الطفل يشبهني . . . هو غير موجود هنا . . . » .

كان الطفل المنبوذ بنتاً ، ومع ذلك ، لم يكن لتلك الهلوسة ، التي كانت تعذب جيمبي ، جنس محدد . وهذا أمر غريب . إن المسألة مسألة طفل ميت دائماً . ولم يكن جيمبي ، في لحظات نصوع فكره ، قادراً على منع نفسه من الاعتقاد بأن الطفل الحقيقي قد ظل على قيد الحياة .

كان يخيل اليه أيضاً ، في أحد الأيام ، أن ذلك الوليد ، كان قد ضربه على جبينه بقوة قبضتيه الصغيرتين . أما هو أبوه فقد كان يخفض رأسه ليتحاشى الضرب ، لكن الضربات كانت تنهال عليه بازدياد . ولكن متى كان ذلك ؟ متى ؟ إنها هلوسة أيضاً . في الواقع ، كان كل ذلك مستحيلاً . لو أن الطفل ظل حياً ، لأصبح الآن كبيراً ، ولكان من المستبعد أن يشترك جيمبي في مشهد من هذا النوع .

في أمسية صيد الحباحب ، ظلّ ذلك الكائن الصغير الذي ارتبط بخطوات

جيمبي ، عبر غطاء الأرض ، عندما كان جيمبي يسير على الطريق ، صغيراً جداً . وفي واقع الأمر ، لم يكن يبدو عليه أنه يستمتع بجنس معين . لكن جيمبي فكر : ومع ذلك ، إن كل رضيع إما أن يكون صبياً أو بنتاً . وفي اللحظة التي خطرت هذه الفكرة في باله تغيّر ذلك المخلوق الصغير إلى طيف أملس الوجه . تمتم جيمبي وهو شبه راكض :

ـ « إنها بنت . . . بنت » .

واندسّ في شارع تحفّ به المخازن الكبيرة وشرع يسير تحت لافتاتها المضاءة بالنيون . ولما بلغ جيمبي المخزن الثاني ، بعد الزاوية ، مدّ رأسه إلى داخله وهو يلهث ، ثم صاح :

ـ « دخان ، من فضلك ! دخان ! » .

برزت امرأة بيضاء الشعر . لا ريب أنها طاعنة في السن ، لكن مسألة انتمائها إلى هذا الجنس أو ذاك لم تطرح نفسها عليه أبداً ، فظلّ جيمبي مطمئن البال . وماشييه كذلك بعيدة عنه الآن ، بعيدة جداً . وكان لا بدّ له من بذل جهد في التخيل ، لكي يقبل بوجود فتاة مثلها على سطح الأرض .

أحسّ جيمبي أنه خفيف جداً ، كأنه مغلف أفرغ من محتواه ، ورأى قريته مسقط رأسه ، للمرة الأولى منذ عهد طويل ، ذكر أمه في ريعان جمالها ، لا أباه الذي مات ميتة تعيسة. مع ذلك، ظلت منطبعة في ذهنه الشناعة الأبوية، أكثر من رسوخ جمال الأم : تماماً كما هي الحال معه ، هو ذاته ، إذ يسهل عليه تذكر تشوّه قدميه قبل تذكر قدمي ياغوي الناعمتين المحبوبتين .

وهناك ، على ضفة البحيرة ، أرادت ياغوي أن تلتقط ثمار العنّاب الحمر من شجرتها الوحشية ، فدخلت شوكة في خنصرها ونزلت منه قطرات من الدم القاني . ظلت تتأمل جيمبي من الأسفل وهي تمصّ اصبعها .

ـ « لمَ لا تقطف لي بعض الثمار يا جين ـ شان ؟ فالأمر سهل عليك بقدميك اللتين تشبهان قدمي القرد . إنهما مثل قدمي أبيك تماماً حتى ليقال إنك لم تأخذ شيئاً منا ! » .

أصبح مجنوناً من الغضب والحقد ، وتمنى لو كان في مقدوره أن يدسّ قدمي ياغوي في وسط الأشواك . لكنه لم يكن يجرؤ على لمسها ، فاكتفى بإظهار أسنانه

كأنه كان ينوي عضّ جُمع يد بنت خاله . فقالت له ياغوي وقد كشفت أسنانها أيضاً :

ـ « أنت ترى جيداً أن هيئتك هيئة قرد ! أيها الألثغ ! » .

لم يزعج جيمبي نفسه بالتدقيق في قدمي الوليد المنبوذ . إذ أنه كان على قناعة تامة بأن هذا الوليد ليس منه . ومع ذلك ، إن فحصاً محتملاً كان يمكن أن يبين ، بين قدمي ذلك الوليد وقدميه ، تماثلاً في الشكل . وفكر: دليل لا يدحض على إثبات الابوة . ثم وجد شيئاً من المتعة الشاذة وأشاح بوجهه ساخراً .

ولكن ، أليست أقدام الرضّع الدقيقة ، التي لم تمسّ سطح الأرض ، أكثر طراوة وجمالاً من أقدام الملائكة المجنحة ، من الأطفال الذين يحيطون الأب السرمدي في الرسوم الدينية في الغرب ؟ وفي نهاية المطاف ، ألا تصبح كل الأقدام الانسانية شبيهة بقدمي جيمبي عندما تتمزق وتخشوشن ، وتتسخ بكل قذارات هذا العالم وعاره ؟

وفاجأ جيمبي نفسه وهو يتمتم قائلاً :

ـ « ولكن إذا كان ذلك الطفلَ طيفاً ليست له قدمان . . . » .

ثم أضاف :

ـ « ولكن منذا الذي أصدر قانوناً حرم الاشباح فيه من أن تكون لها سيقّان ؟ فمنذ الأزل وجد أناس مخلوقون مثلي . لعلّ قدميّ أيضاً قد انقطعا عن لمس الأرض . . . » .

كان جيمبي تائهاً بين أضواء النيون ، وكانت إحدى راحتيه قد انقلبت نحو السماء ، كأنها تتهيأ لاستقبال مطر من الحجارة الكريمة . إن أعلى جبل في العالم ، وأجمل جبل في العالم ، لا يكتسي بالخضرة . إنه ينتصب شامخاً مغطى بالصخور وبالرماد البركاني . ويعكس اللون الذي تفرضه الشمس عليه في كل لحظة . قد يكون وردياً، أرجوانياً. انه لا يفعل شيئاً الا أن يتحد مع اللوينات الدقيقة التي تنبعث من الأصباغ الموجودة في السماء ، مع شروق الشمس ومع الغروب . وخلص جيمبي إلى نتيجة مؤداها أن من الواجب عليه أن يخنق في نفسه نداء عبادته لماشييه .

ـ « حينذاك ، سوف أبحث عنك ، إن لزم الأمر ، حتى في أعماق حي أوينو » .

تذكر هذه الكلمات الساحرة التي صدرتِ من فم هيزاكو ـ هل كانت وداعاً ؟ هل كانت يمين حب ؟ ووجد نفسه في « أويونو » وقد صمم أن يحلل الأماكن ذاتها ويعـرف ماذا حلّ بها .

هل فقد الكثير من نشاطه ؟ لقد اكتشف أنه أهدأ بكثير مما كان عليه في الماضي . لم يكن يُرى ، على طرف أحد الممرات الأرضية ، سوى حطام من الناس ، وقد تمرغوا في الأرض ، أو تكوّموا مقرفصين ، ويقال إنهم استقروا هناك واتخذوا المكان بيوتاً لهم . وكان بعض هؤلاء التعساء قد لفّوا خرقاً بالية وجعلوا منها وسائد ، أما الأسرّة فقد كانت من أكياس الفحم الفارغة أو من كومة من القش . أما الأكثر « رخاء » منهم فقد احتفظوا بصرّة متاعهم في متناول أيديهم . مشهد تقليدي لجمع من الناس لا مأوى لهم ، لا يأبهون بالمارة أبداً ، بل إنهم لا يرفعون أبصارهم عند مرورهم . ولا يردون النظرة بل إنهم لا يأبهون بالأنظار الموجهة اليهم . وقد يغبط منهم أولئك الأشقياء الذين ناموا دون انتظار أي شيء . كان ثمة زوج من الشبان يستريح هانئاً ، وقد وضعت المرأة رأسها على ركبتي الرجل ، أما هو فقد مال نحوها ، كان من المستحيل جداً أن نجد ، حتى في القطار ، مثل هذا الالتحام بين جسدين نائمين . يمكن أن يقال إنهما عصفوران حشر أحدهما رأسه في أعماق ريش الآخر . لم يصل عمرهما إلى الثلاثين . توقف جيمبي لينظر اليهما : ليس هذا مألوفاً . إنهما من المتسكعين المشردين .

كانت تفوح في الممر رائحة دجاج مشوي على السيخ مع يخنة كثيرة التوابل مختلطة بعفونة الرطوبة . وكان مدخل المطعم الحقير فتحة بسيطة في الجدار الاسمنتي الداخلي وقد غطي بستارة ـ لافتة . كان على جيمبي أن ينحني قليلاً لكي يدخل فيه . عبّ قدحين أو ثلاثة ، واحداً إثر واحد ، من كحول قاتل مقطر مع رواسب الرز المخمر . ولمح تنورة منقوشة بالزهور ، فرفع ، من جديد ، تلك الستارة لكي يخرج . فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام ممثل متنكر .

رشقه الممثل بغمزة قبل أن يوجه اليه كلمة . فهرب جيمبي . لكن الركض السريع ، في هذه المرة ، لم يكن ممتعاً .

وفي الطابق الأعلى ، اقترب من غرفة الانتظار المفعمة برائحة البؤس ذاتها . ناداه أحد المستخدمين إلى اباب الدخول :

ـ « بطاقتك ، من فضلك » .

إن ضرورة البطاقة للدخول إلى غرفة الانتظار حدث جديد . كان ثمة تعساء آخرون ، لا عمل لهم في الظاهر ، يقفون قرب الغرفة . وكان بعضهم مقرفصين عند أسفل الحائط .

ما إن خرج جيمبي من المحطة حتى شرع يفكر في الشذوذ الجنسي عند الممثلين المخنثين . وفجأة وجد نفسه أمام امرأة ، في زقاق وصل اليه صدفة . كانت تضع ، في قدميها ، حذاء مطاطياً ضخماً ، وكانت ترتدي قميصاً أبيض وبنطالاً أسود بالياً . كان كل ذلك نصف مذكر . لا يوجد أي انتفاخ ، في مكان النهدين ، يجعل القماش ، الذي كشّ بفعل الغسيل ، مشرئباً بارزاً . أما الوجه الذي لفحته الشمس ، فاسمّر وقسا ، فلم يكن يحمل أي أثر من آثار التبرج . نظر جيمبي وراءه . اقتربت المرأة منه وقد بدت على أهبة الاستعداد لأن توجه اليه الحديث عندما قاطعته . ثم أخذت تتبعه . لقد ألف جيمبي أن يطارد المرأة ، لذا فقد سيطر عليه الانطباع الآن بأنه يملك عينين في ظهره . ولقد عاشت هاتان العينان فجأة حياة مكثفة دون أن تتمكنا من التغلغل في دوافع المرأة .

لقد سبق أن طورد جيمبي مرة واحدة فقط على هذا النحو . كان واقفاً أمام بوابة من الحديد ، هناك حيث كانت تقطن هيزاكو ، حين أطلق ساقيه للريح ولاذ بالفرار ، لكي يتعرض للفشل ، في حي من أحياء اللذة ، ليس بعيداً عن هذا المكان . وفي هذه اللحظة أيضاً تطارده امرأة ممتهنة . وقد كانت تزعم :

ـ « ولكن . . . لا . إنني لا أتبعك فعلاً » .

ومع ذلك لم يكن مظهر امرأة اليوم مظهر مومس . فحذاؤ ها المطاطي كان مغطى بالوحل . لم يكن الوحل جديداً . بل إنه قديم مضى عليه أيام عديدة دون أن يكلف أحد نفسه عناء غسله . والحذاء نفسه كان عتيقاً مهترئاً حائل اللون . أي نوع من النساء هذه التي كانت تتسكع في حي أوينو ، وتضع في قدميها حذاء كبيراً في وقت هو غير وقت الامطار ؟ إذن ، هل تملك قدمين قبيحتين مشوهتين ؟ وهل ارتدت البنطال ، بالاضافة إلى الحذاء الطويل ، لكي تخفي ذينك القدمين ؟

فكر جيمبي في قدميه . وعندما وصل إلى فكرة أن امرأة تملك قدمين بشعين مثل قدميه وتطارده ، توقف جامداً في مكانه متمنياً أن تتخطاه . لكن المرأة

توقفت ، من جانبها . التقت نظراتها المثقلة بالأسئلة . كانت المرأة أول من بدأت :

- « هل ترغب في شيء ؟ » .

- « يخيل إليّ أنني أنا الذي يجب أن أسأل . لقد كنت ماضية في مطاردتي. أليس كذلك ؟ » .

- « لقد رميتني بغمزة » .

- « لا . . . أنت التي غمزتني » .

كان يتساءل ، في أثناء رده على كلامها ، عمّا اذا كان ثمة شيء في موقفه ، عندما صادف المرأة ، يمكن أن يؤول على أنه دعوة منه . ولكن لا . لقد كانت هي ، دونما أدنى شك ، التي تبحث عن منفعتها .

- « أنا . . . نظرت إليك من غير قصد . . . إنما كنت أجد ، بكل بساطة ، هيئتك سخيفة . . . » .

- « إنني لا أرى سخافة في مظهري » .

- « هل تطاردين كل من ينظرون إليك ؟ » .

- « لا أعرف ماذا جذبني اليك ! » .

- « إلى أين تريدين أن تصلي بالضبط ؟ » .

- « ولكن . . . إلى أي مكان ! » .

- « هيا . . . هيا . . . لا ريب أن عندك فكرة مسبقة عندما تلتصقين بي ؟ » .

- « إنني لا ألتصق بك . . . . اقتربت منك هكذا . . . هذا هو كل شيء . . . ! » .

- « نعم . . . ! » .

تأملها بدقة . كانت شفتاها غير المتبرجتين ، تمثلان لوناً منافياً للصحة ، مسوداً ، وتبديان ترميماً بالذهب للأسنان . كان من الصعب تحديد عمرها . مع ذلك، قد يكون عمرها أقل من الأربعين بقليل. وكان ثمة بريق ماكر وثاقب، في آن واحد ، ومذكر أيضاً ، يشعّ تحت جفونها المثقلة . وكانت عيناها ـ وإحداهما أصغر من الثانية ـ تبدوان وكأنهما تترصدان الفرصة. ولقد جففت الشمس بشرة

وجهها وجعلتها سمراء . أحس جيمبي بمشاعر الخوف .
ـ « موافق . . . لنذهب ! » .

وكأن يدها كانت تنتظر هاتين الكلمتين اللتين تلفظ بهما لكي ترتفع وتعبث بصدر ذلك الانسان الذي كان يقف قبالتها . لقد أصبحت المسألة مرتبطة بامرأة .
ـ « ماذا تعمل ؟ » .

أمسكت بيده . كانت راحته هو ناعمة . وكانت المرأة تجهل الأعمال اليدوية .

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي يجد فيها جيمبي نفسه مدفوعاً نحو التأكد من جنس محدثه . لقد كان يشك في أن محدثه امرأة . وكان ما قدره تقديراً قد تأكد عند لمسه إياها ، وهذا شيء غريب . وقد أوحى له ذلك بشيء من المودة على عكس ما كان عليه . كرر قائلاً :

ـ « طيب . . . لنذهب إلى أي مكان ! » .
ـ « وأين هذا . . . أي مكان ؟ » .

ـ « لا بد أن تكون في المنطقة حانة صغيرة يمكن أن نرتادها ؟ » .

كان يفكر في أثناء ذلك ، أين يمكن أن يجد من يقبل بامرأة ترتدي ثيابها على هذا النحو المضحك ، ثم استدار نحو أنوار المدينة ، ودخل ، في نهاية المطاف ، إلى حانة يقدم فيها طعام « الأودين » . . . وكانت المرأة تتبعه كظله الدائم . كان المكان الذي يقدم فيه هذا الطعام المتبِّل محاطاً ، من جوانبه الثلاثة ، بمقصف وطاولات خشبية واطئة ، وفي مكان منزوٍ منه قليلاً كانت بعض الطاولات العادية تكمل المنظر الكلي . وجدا الطاولات الخشبية الواطئة مشغولة فاحتلاّ طاولة قريبة من المدخل . كانت الستارة القصيرة التي وضعت على جانب من الفتحة تسمح لهما برؤ ية المارة حتى منتصف أجسامهم .

سألها جيمبي :

ـ « هل تتناولين الساكي أم الجعة ؟ » .

لم يكن ليأبه بأي تصميم خاص إزاء هذه المرأة المسترجلة : لقد عرف الآن أنها لا تتصف بالهجومية في سلوكها . ولما كان لا يجابه أي هدف محدد معها فقد

تخلص من كل ما يشغله . لذا كان عليها هي أن تقرر إن كانت تريد الساكي أو الجعة . قالت المرأة :

- « أنا شخصياً أرغب في الساكي » .

إذا طرحنا الدجاج المتبل جانباً ، فقد ألصقت إعلانات صغيرة تقترح بعض الوجبات البسيطة جداً . ترك جيمبي الحرية للمرأة في اختيار لائحة الطعام .

وفكر :

- « عدم التحفظ هذا . . . لا بد أنها تكافح من أجل بيت ! » .

ينسجم نشاط المرء مع شخصيته . لكن جيمبي احتفظ بشكوكه لنفسه . لا شك أن المرأة ، من جانبها ، كانت حذرة منه لأنها لم تقترح عليه أي شيء . أم أن تنبؤها وتوقعها لنوع من صلة القربى الحقيقية بينهما هما اللذان جعلاها تصرّ على التعلق بجيمبي فعلاً ؟ ومهما يكن من أمر ، فقد بدا له مباشرة أنها تراجعت عن نواياها الأولى .

- « هذا غريب . يوم في حياة رجل . لن نعرف ماذا سيجري أبداً . أن أجد نفسي وأنا أشرب معك ، مع أنني لا أعرفك مثلاً ، لا من حواء ولا من آدم » .

- « هذا صحيح . لا من حواء ولا من آدم » .

بدت الكلمات وكأنها ليست سوى ضجيج موجه لمرافقة حركة القدح فقط ، وليست أكثر من ذلك » ,

- « اليوم مثلاً . خلاصة النهار كله هي أن أفرغ قدحاً في رفقتك . . . » .

- « نعم . هذا صحيح . النهار ينتهي » .

- « وهل ستعودين ، بعد ذلك ، إلى بيتك ، مباشرة ؟ » .

- « نعم . فابنتي تنتظرني وحدها » .

- « إذن . . . عندك بنت ؟ » .

كانت المرأة تشرب بلا انقطاع . وكان جيمبي يتأملها وهي تشرب . لم يكن يصدق أنه رأى ، في ليلة واحدة ، ماشييه في عيد الحباحب ، وطورد من شبح الوليد ، على الهضبة ، ووجد منهمكاً بالشرب مع رفيقة عابرة . ولكن ، يبدو أن السبب الحقيقي لعدم تصديقه هو قبح تلك المرأة في الواقع . ألا يرى نفسه الآن

وقد أرغم على الاعتراف بأن كل ما يمسّ ظهور ماشييه الفجائي كان ينتمي إلى حقل الأحلام ، وأن الحقيقة الوحيدة تكمن في وجوده هنا ، جالساً على مائدة واحدة مع فزّاعة في مطعم حقير؟ ومع ذلك ، إنه لم يكن يتشبث إلا قليلاً في تفكيره الذي يدور حول وجوده هناك ، وحول اندفاعه في شرب الأقداح وإفراغها ، مع هذه المرأة الحقيقية ، والسبب في ذلك أنه لم يكن ليفعل كل هذا إلا لكي يقترب من فتاة أحلامه . لقد كانت تلك المرأة منفرة ، وذلك أفضل عنده ، لأنها كانت تسمح له باستحضار وجه ماشييه الحلو .

سألها :

ـ « ولماذا هذا الحذاء الطويل المطاطي ؟ » .

فأجابت المرأة بكل بساطة :

ـ « عندما خرجت كنت أظن أن المطر سوف يهطل » .

تملكته رغبة عارمة في رؤ ية القدمين المختبئين داخل ذلك الحذاء الطويل لعلّهما مشوّهان ، وهذا يعني أن جيمبي صادف أخيراً شريكة على شاكلته .

كانت بشاعة المرأة تزداد مع تقدمها في الشرب . وإن منظر عينيها ، وبالأخص تلك العين التي كانت أصغر من الثانية ، لم يكن يوحي اليه الا بشق صغير ، كانت تشع منه نظرة منحرفة متجهة نحو جيمبي ، كانت المرأة تترنح . وعندما أمسك بها بيديه ، من كتفيها ، لم تبدر منها أي حركة لتمنعه . ولقد خيل لجيمبي آنذاك أنه طوّق بيديه حفنة من العظام .

ـ « ما كان ينبغي أن تكوني نحيفة إلى هذه الدرجة ! » .

ـ « ليس الذنب ذنبي . امرأة وحيدة مع ولد في عهدتها . . . » .

سردت عليه أنها وابنتها كانتا تعيشان في غرفة مستأجرة في أعماق زقاق ضيق . البنية الصغيرة في الثالثة عشرة من عمرها ، تذهب إلى المدرسة . أما زوجها ، اذا صدق كلامها ، فقد مات في ساحة الشرف . إنها قصة جميلة في الحقيقة . لا يمكن التدقيق فيها . ولكن يبدو تماماً أن للمرأة طفلاً . اقترح عليها جيمبي من جديد :

ـ « هل أرافقك ؟ » .

فوافقت لكنها ما لبثت أن انقلبت سحنتها فجأة وأصبح وجهها أشد قسوة :

ـ « لا . ليس عندي . ليس مع ابنتي » .

كانا جالسين جنباً إلى جنب ، مقابل الطبّاخ ، لكن المرأة استدارت نحو جيمبي ، بصورة غير شعورية ، وأصبحت الآن متهالكة فوقه ، وقد أرادت أن تتظاهر بشيء من الدلال . بدت كأنها على استعداد تام لأن تسلم له جسدها . شعر جيمبي بضيق في صدره ، وبأنه لامس الحدود النهائية للعالم . ليس لأنه كان يجسم الأمور . ولكن لأنه لمح ماشييه في تلك الأمسية ، بدون ريب .

كانت تلك المرأة مقززة حتى في أسلوبها في الشرب : لقد كانت ، في كل مرة ، قبل أن تطلب زجاجة جديدة ، تسأل جيمبي بنظرتها . فيرد عليها قائلاً :

ـ « موافق . خذي واحدة أخرى » .
ـ « لن أتمكن من المشي . هل تسخر مني ؟ » .
ثم تضع يدها على ركبة جيمبي :
ـ « ولكن . . . هذا هو الأخير إذن . هل تريد أن تصبّه لي ؟ » .

سالت الخمرة من زاوية شفتيها ، وبللت الطاولة . اتخذ وجهها الجاف لوناً مائلاً إلى البنفسجية والحمرة .

وفي اللحظة التي خرجا فيها من الحانة تعلقت بذراع جيمبي . ضغط على جمع يدها وقد أذهلته عذوبة بشرتها . مرّا أمام فتاة تبيع الزهور . فقالت المرأة :

ـ « اشتر لي زهوراً . . . من أجل ابنتي » .

ثم ما لبثت أن تركتها عند بائع المعكرونة الرفيعة الذي كان قد وضع عدّته في زاوية من زوايا شارع مظلم :
ـ « احتفظ لي بها عندك أيها السيد . سأعود لأخذها فوراً . . . » .

وبعد أن تركت الزهور بفترة وجيزة بدا سكرها واضحاً تمام الوضوح :
ـ « هل تعرف . . . منذ قرون طويلة لم أكن مع رجل ؟ أخيراً ، لا يستطيع الانسان أن يفعل شيئاً حيال ذلك ، في هذه المرة . إنه القدر ! . . . كأنه هو الذي وضعك على دربي ! » .
ـ نعم إنه القدر ، ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً إزاءه ! » .

لقد أسف لأنه ردّ عليها بالنبرة ذاتها . وتابع سيره معها ، على هذا النحو ،

وقد لفّها بذراعه ، ولم يكن يبدي إزاء نفسه سوى التقزز والاشمئزاز . وظلت تدغدغ أعماقه الرغبة الوحيدة في رؤ ية القدمين السجينين في الحذاء المطاطي الطويل ، ومع ذلك ، كان يخيل اليه أنه كان يعرف هذين القدمين المقصودين منذ عهد بعيد : إنهما ليسا مصابين بالفطور مثل قدميه ، لكن لهما أصابع ممسوخة وجلداً سميكاً مسوداً ، ورأى نفسه عارياً ، جنباً إلى جنب مع هذه المرأة ، وقد مدّ كل واحد منهما ساقيه . فأصابه الغثيان .

إلى أين كانا ذاهبين ؟ لقد فوّض جيمبي أمره إلى المرأة . اندسّا في شارع ضيق . وبلغا معبداً صغيراً جداً يقال له « إيناري » . وكان يجاور ذلك المعبد الصغير فندق حقير جداً من فنادق المتعة . تداعت المرأة عند حافة الشارع الضيق .

ـ « اذا كانت ابنتك في انتظارك فما عليك إلا أن تذهبي إليها سريعاً » .

بدأ يحارب متقهقراً . صرخت المرأة صرخة مدوية :

ـ « أيها الأبله . . . ! » .

ثم أمطرته بوابل من الحصى التي التقطتها أمام المعبد . أصابته حُصَيَّة صغيرة في كعب قدمه . فصاح :

ـ « أوي . . . ! » .

ابتعد ، وهو يعرج ، وكان أكثر تعاسة من أي وقت مضى . لِمَ لم يعد إلى بيته رأساً ، بعد أن علق قفص الحباحب في ظهر ماشييه ؟ ذهب إلى غرفته التي كان يستأجرها في طابق بيت خاص ، نزع جواربه . لقد اتخذ كعب قدمه لوناً أحمر خفيفاً .

البحيرة

ولد في « أوزاكا » في العام الذي اختتم القرن التاسع عشر .

كان حلمه ، وهو صبي ، أن يصبح فناناً . ويمكننا أن نستشف هذا الحلم في ثنايا أعماله الروائية .

نُشِرت أول رواياته وهو ما يزال تلميذاً في المدرسة الثانوية ، وعندها قرر أن يمتهن الكتابة .

تخرّج من جامعة طوكيو عام ١٩٢٤ . أصدر روايات عديدة من أهمها : « راقص أوزو » (١٩٢٥) ، « بلد الثلج » (١٩٥٦) ، و « البحيرة » (١٩٥٩) .

نال جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٨ على الرواية التي نقدمها بين دفتي هذا الكتاب .

نشط أيضاً في حقل النقد الأدبي وساهم في اكتشاف بعض الكتّاب الموهوبين لعلّ « يوكوميشيما » هو الأبرز بينهم .

الثمن ١٢ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

دار التنوير للطباعة والنشر ص . ب : ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر ص . ب : ٥٨٠٣٠ - ١١٣ بيروت - لبنان